آدم يحيى عبد الرحمن الفلاني

على الطريق

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

على الطريق
آدم يحيي عبد الرحمن الفلاني
الطبعة الثانية ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٧ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١١٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٦٥٧
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-450-7

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الفلانى ، آدم يحيى عبد الرحمن .
على الطريق : قصة / آدم يحيى
عبد الرحمن الفلانى .- ط٢ .- القاهرة :
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧
١١٢ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٧ ٤٥٠ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ – القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ ...

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلعَظِيمُ

(١)

على طريق الحيِّ أمشي ، ولا أدري متى بدأتُ هذا المشيَ ، وإنما وجدتُ نفسي ماشياً ذات يومٍ على طريق « سَهْلِ مَالِكٍ » في الحيّ الفلاني .

وكان كبارُ الحيّ في ذلك اليوم حائرين مضطربين ، وكان صغارُهم يزدحمون في الشارع ويصيحُون ، أما علماء الحيّ فَهُمْ أشدُّ الناس قلقاً واضطراباً ، وقد فرغوا من صلواتهم المفروضةِ ، وفرغوا من أذكارهم التي تعوّدوا تلاوتَها بعد كلّ صلاة ، وبقِي أن يسعى كلٌّ من هؤلاء إلى داره ، هنا دوّى الصوت دوِيًّا ، فهاج القومُ وماج الحيُّ ، واضطرب الأحياء والأشياء ، كلٌّ يولّي هارباً ، وكلٌّ يلجأ إلى الفرار من طلَقاتٍ ناريّةٍ رجّت بها أرجاءُ الحيّ رجّاً عنيفاً .

ولقد رأتْني أمِّي من بعيدٍ على الشّارع ، ورأيتُها تسعى إليَّ ، وتندفع نحوِي ، فالتقينا بعدَ تصادمٍ عنيفٍ يجري بين أهل

الحيّ في ذلك الوقت ، هكذا أخـذتْني أمِّـي بيمينهـا وتجرّنـي إلى حجرتها كما يجُرُّ الحصانُ عربةَ النَّقـل . ومـا إن وصـلْنا إلى الدّار حتىّ صكّت آذانَنا طلقاتٌ أخرى ناريّـةٌ ، هـزّت بهـا الأرضُ هزّا عنيفاً . ففزعتِ الدّارُ ومـنْ فيهـا ، وسـاد الصّـمت والسّكون كأنّـنا في وادِ الأموات . هنا رأيتُ أبـي مُقـبلا نحـو الغُرفة يجري في سرعةٍ واندفاعٍ ، وأخذ يُتَمْتِم خافتاً بآية مـن آيات القرآن الكريم وهي (وإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

وبعد لَأْيٍ ، أخذ أحدُ رجال الحيّ يدعو اسمَ أبي مـن وراء الباب ، في صوتٍ رهيبٍ مُرتعِشٍ ، هو يدعوه إلى الخُروج مع رجال آخرين من أهْل الحيّ . وكان ضُبَّاط الجيش ينتظرونهم تحت الشّجرة القائمة أمـام دارِنـا حيـث يـتِمّ تسـجيلُ أسمـاء الرجال المجبورين على عمليّة الحرب الأهليّة التي بدأتْ منـذ ثلاث سنين . وتمّ اختيار أبي من أهـل الحـيّ وخمسـةِ شُـبَّانٍ آخرين من أبناء أعْمامِه وخالاتِه . هنا رأيتُ جدّتي تسعى إلى ضُـبَّاط الجـيش وتشـكو أمْـرَ هـذا الاختيـار ، وتـأبى أن يـتمّ تسجيلُ ابنِها في قائمة المجبورين ، وهي تعتذرُ وتبكـي علـى أنّـه هو الوحيدُ الَّـذِي بقـي لهـا يُطعمهـا ويُسـقيها بعــدَ وفـاة

زوجها ، وليس لها ذَكَرٌ آخَرُ من أبنائها يقوم بهـذه المسـئوليّة إنْ أجبروه على الذِّهاب إلى الحرْب .

كان أبي في هذا كلِّه ينظر إلى أمّه ويُحَمْلق ، وكان ضـبّاط الجيش ينظرون إلى هذه الجدّة الشّاكية نظرةً لا تخلُو من شكٍّ ورَيْبٍ ، فقال رئيسُ الضُبّاط في صوت جَهْـوَرِيٍّ صـارمٍ : مَـنِ الَّذِي يكون شاهدا على ما تقـولِين يـا أُمَّـاه ! ؟ فـانْبرى إمـامُ مسجد الحيّ إلى رئيس الضبّاط فقدّم شهادتَه ، وعُفِيَ لأبي عن الانضمام إلى فِرْقَة الجـيش الـذين يُسـاقُون إلى المـوت جـبرًا وقسرًا .

(٢)

في تلك الأيّامِ ـ أيّامِ الحرب الأهليّة ـ كان رجالُ الحيّ يتجمّعون سامرين في كلّ مساء حول القناديلِ الخافتِ ضوؤُها ، وكانت الأحاديثُ تدور بينهم في خُفُوتٍ حول أخبار الحرب التي ينقلها إليهم المِذْياعُ بُكرةً وأصيلاً .

ولقد انقطع السّير على الشّارع بعد السّاعة السّادسة مساءً ، لا ماشيا ولا راكبا ، وانقطع كذلك التيَّار الكَهْرَبَائِيُّ في المُدن والقرى ، لا نور ولا ضياء ، كلُّ شيءٍ بعد الغُرُوب يعيش في ظلام دامس . وكان النّاس يخافون في تلك الأيّام من إغارة قبائلِ « إِيبَوْ » بالطائرة النفّاثة على الأمكنة المُضِيئة في شمال البلاد وجُنوبها .

في هذه الحالةِ المضطربة كان كبارُ الحيّ يتجمّعون مساءً ويَنْدُبون موتَاهم في الحرب ، ويتحدّثون فيما بينهم عن مؤامراتِ قبائل « إيبو » ضدّ الحكومة الفَيْدراليّة ويتحدّثون عن

« أحمد بَللُّو » وعن الشّهداء الـذين قُتِلُـوا في سـبيل الوطنيّـة ، ويتحـدّثون عـن « أَوْجُوكُـو » رئـيسِ زعمـاء الانفصـاليّة ، ثـم يتحدّثون عن الشّباب الذين نُقلـوا إلى ميـدان القتـال وخاصّـة شبابنا الإلَوريّين الذين لم تكن لهم تجربـةٌ أو تـدريبٌ في فـنّ الحرب من قبلُ ، ما مصيرُ هؤلاء الشّـباب ؟ ومـاذا ينتظـرهم في ميدان القتال من ويلٍ وثُبُورٍ؟

هذا كلُّه هو ما يجعل كبارَ الحيّ يتجمّعـون في كـل مسـاءٍ ويلتفّون حول المـذياع التفافـاً شـديدا ، ويُمِـدّون آذانَهـم إلى الإذاعة وينقلون بها الأخبارَ التي تُشاع على الهواء مـن محطّـة « إبَادَنْ» تارةً ، ومن محطّة « كِدُونَا » تارةً أخرى ، ثمّ يُطيلـون التعليقَ حول هذه الأخبار المُؤسِفة ، ثم ينتهي بهم التعليقُ إلى النِّقاش ثم إلى الاستزادة والتوضيح من أفواه المتقوِّلين .

وهنـا تتفجّـرُ الأقاويـلِ مـن أفـواه بعضِـهم بـلا حسـابٍ ، فيُرسلون خيالاتِهم في جُمُوحٍ ، ويتفنّنون في اختلاق الأكاذيب مـن القـول ، ويـأتون بأخبـار غريبـةٍ عـن أبطـال الحـرب وشخصيّاتها كأنهم ذهبوا إلى ميدان العمليّة وشاهَدوا الواقعةَ .

أمّا أبي فكان يستشيطُ غضـبا كلّمـا يـرى هـؤلاء الأفّـاكين ينذُبون موتاهم بالثّرثرة فقـط دون أن يشـاركوهم في الحـرب

بالدِّماء ، وقد يتجاوز به الغضبُ أحيانا إلى التَّذمُّر ، فيمتنع عن تناوُل العَشاء ، ويثور على نفسه ثورةً عنيفة ، ويقول : « والله لولا أمّي العجوزُ لذهبتُ إلى الحرب وأخوض غِمارَها حتىّ أموتَ » .

أما أنا وأمثالي من صغارِ الحيّ فأمرنا مختلفٌ جدًّا ، وبديهي بأدقّ معنى الكلمة . كان كثيرٌ منّا يحبّ أن يستمع إلى أحاديثِ كبار الحيّ عند هُبوط الليل ، ويحبّ أن يتلذّذَ بقصص أبطال الحرب الأهليّة ، وكان ما يُؤْذِينا هو أن يُحَرَّم علينا سماعُ هذه الأحاديث ، وكان كثيرٌ منا يتعجّل بعَشائه ، وربّما يُلغي هذا العَشاء إلى آخر الليل إذا بلغه الخبرُ أنّ الرجال الكبارَ قد أخذوا يتجمّعون ، وأن الحلقةَ قد بدأتْ تنتظم في شكل دائرٍ وأنّ أحدا من الكبار قد بدأ يقصّ أدوار « مرتضى محمّد » في حرب مدينة « آورَي » وأدوار « محمد شوا » في حرب مدينتي « أَوْنِتْشَا » و« أَيْنُوغُوْنْ » ، وتُروى أخبار « أولُوشَيْغُنْ أوبِاسَنْجَو » و« أدَيْكُنْلَيْ فَاجَوْيَيْ » ، وما إلى هؤلاء ممن أظهروا البُطولةَ النادرة في ميدان الحرب الأهليّة .

هكذا نحن أبناء حيّ الفلاتة في تلك الأيّام ، كلّ منا يتلـذّذ بسماع أخبار الحرب ، وكلّ منّا يستهضِمها استهضـاما يفـوق الوصْفَ ، لا لشيء سوى أن يرى أكثرُنا أنّ في استطاعته إعادةَ جميع هذه الأخبار المُلفَّقة من ذاكراته ، فيُلقيه علـى أصـحابه في وقتٍ من أوقات النّهـار . كـذلك كـان الصـبيّ يقـوم بـدور المُحاكاة في وصـف أدوار أبطـال الحـرب ، وقـت الاسـتراحةِ بالمدرسة ، ويُطيل هذا الوصف بدون تعثُّـرٍ ولا تعنُّـتٍ ، وقـد يمضي بواحدٍ منّا جموح الخيال فيذهب مذهبَ بعض الكبـار الأفّاكين ، ويُضيف خوارقَ العادات إلى الجنـود الشُّـجعان في حرب « بِيَافْرَا » ، ويفـوز مثـل هـذا الصـبي القـاصّ بإعجـابٍ وتقدير عند أترابه المستمعين.

على هذا النّحو كان كبارُ الحيّ يُنفقون أوقاتهم في اللّيـل ، وعلى هذا النّحو كان صغارُهم يَقتلون أوقاتَهم وجْـهَ النّهـار ، ورُبّمـا لا يُحسّـون بمـرور الأوقـات ولا بمضـيّهـا إلا إذا فاجأتْهم الصّيْحات المُتتالية التي تعوّدْنا سماعَها أثناء الحرب ، حيث ينادي المنادِي ، فما أكثر ما ينادى بهذا النداء كلَّما مرّت الطائرةُ في الجوّ! : هلُمُّوا أيّها الأبناء ، هلمّوا إلى الحُفرة ! إلى الحُفرة ! فسرعان ما ترى الأبناء بعد هذا النداء يسـارعون إلى

الحفرة الكبيرة التي حفروها وراء الدّار ، ويَثِبُون في قعرها واحدا واحدا . ثم كانت نساء الحيّ ، فيُشاركْن أولادَهنّ في هذه الوثبات . وما فعلوا هذا كما ترى إلا خوفاً من صاعقة تستطيع الطائرةُ النفّاثة أن تُمْطرها وابلةً عليهم من السماء ، فتُصيب من لم يدخل الحفرة وجلا مسرعا.

على هذا النحو قضينا أيّاما طِوالا في الخوف والقلق ، ننتظر انتهاءَ الحرب ، وما أطول وقت هذا الانتظار ! وليس من شكّ أنّها أوقات عصِيبة شاعتْ فيها الفتن والاضطراب ، وقلّت فيها راحةُ الضمير.

وفي ليلة من تلك الليالي السّامرة ، حيث يتجمّع الكبار كالعادة ويمدّ صغار الحيّ آذانَهم لاستراق السّمع ، أشاع المذياعُ خبرَ انتهاء الحرب ، فتوالت صيحاتُ الرجال والنساء والصّبيان متصاعدةً إلى السماء ، وهم يهتِفون بقدوم بشائر الفرح والأمن والنّشاط . وفي الوقت نفسِه كانوا يُقلقون على أمور شبابهم الإلوريين الذين نُقلوا إلى الحرب ، أكانوا أحياءً أم أمواتاً ؟ وهم في هذا حريصون على أن يعلموا ما خبّأ لهم الزمان بعد انتهاء الحرب الأهليّة من خيرٍ كثيرٍ أو شرٍّ مستطيرٍ.

(٣)

ولله ذاكرةُ الأطفال ، فإنّ لها انطباعاتٍ نفسيّةً غريبةً لا يُمكن الانفكاك عنها بسُهولةٍ ويُسْرٍ ، وخاصّةً في مواقِفَ حسّاسةٍ لصقتْ بحياتهم لصقاً .

وقد تذكرتُ أنّني نشأتُ في هذه البيئة الغريبة ، بيئة عسكريّة تموج بأفراد من الجيش وتموج بأحوال غريبة يتصرّف بها أولئك الجيشُ بعدما عادوا إلى دِيارهم .

وأنا أذكر أنّ جنودَ حيّ فلاتة قد عادوا من الحرب أحياءً ، وعادوا بغنائمِ الحرب على قدر حساب الدّولة لكلّ واحدٍ منهم ، وعادوا كذلك بشيئين آخرَين لم يكن لهم بهما عهدٌ من قبلُ ، وهما : الخمر والنساء .

كان هؤلاء الجنودُ يرون أن أيّام الفتن قد انتهتْ ، وأيّام القلق والاضطراب قد مضت جُزافا . وحان لهم أن يأخذوا نصيبَهم من التّرف والرّفاهيّة ، ويأخذوا قسطا وافرا مما

حَرّمت عليهم الحربُ من مُتعةٍ ولـذّةٍ في زمـنٍ طويـلٍ ، وقـد تفكّروا ولم يجدوا ما يُوصـلهم إلى هـذه الغايـة إلا وسـائلها فكان الخمرُ وكانت النساءُ .

وأنا أذكر أن جنديَّيْن من هؤلاء الجنود يسكنان دارَنا ، كان أحدهما رجلا مُهابا طويلَ القامة ، قويَّ البنية ، عريضَ الصدر مفتولَ العضلات ، وقد ظهرتْ على بشـرته خشـونةٌ وغِلظـة ، وفي عينَيه ضرب من الحُمرة والسّواد ، كان يُغطّيهمـا بمنظـار أسود في أوقات النهار ، ويزيده هذا المنظارُ هيبةً وجلالةً كلّما جلس في فِناء الدار ساعة أو ساعتين . وكان يُطيل الصمت في هذا الجلوس ويُطيل التأمّل ، وكان لا يُلقي بـالا لمـن يُحدّثـه أثناءَ تأمُّله إلا قليلا ، وبعد سـاعات قِصـار يقـوم فجـأةً علـى قدمَيْهِ كأنَّ طيفاً ينهرُه ويأمره بالسعي إلى حاجته ، وهنا تـراه يمشي كأنـّه الراكب إلى مكان لن يعودَ منه إلا في أوّل الليـل أو آخره .

وإذا عاد في أوّل اللّيل كان صيحاته المتتالية هي التي تُوقظ أهلَ الدار ، وتؤرقهم من النّوم ، وقد أمْسى سِكّيراً لاغيا تفوح من فمِه رائحـةُ الخمـر ، وكـان يحـبّ في هـذه اللحظـات أن

يستجمع قوّةَ ذاكرته ، ويتكلّم عن أحداث وقعتْ في صِغَره ، وقد يذهب به اللغو ـ أحيانا ـ إلى حديث يفوق عُقول الصغار ، فيضطرّ إمامُ دارنا إلى أنْ يثور عليه ويُقيمَ الحدَّ لتصرُّفاته بجلدات تلهب بحسمه لهبا . وكان في هذا كلّه لا يشعر بألمٍ ولا بندامةٍ وإنّما يقول بأعلى صوته أثناء الضرب : (اقتلوني يا جماعة ، والذي نفسي بيده لا تستريحون منّي حتى تقتلُوني) ، هنا ترى رجال الدار يتهالكون عليه بالضرب ، ويتفرّقون بعد مالم يسمعوا منه صوتا ولا همسا.

وأنا صبيّ يومئذٍ أتعجب من أمر هذا الرجل الجنديِّ الذي يكون مغشيّا عليه في اللّيل وينهض في الصّباح ويمضي في شأنه كأنْ لم يقع له شيءٌ . وسألتُ أمّي ذاتَ يوم عن هذه التصرُّفات الغريبة ، فقالتْ : أظنّ أنّ الحُقْنات والمُخدِّراتِ التي يحصل عليها الجنديُّ أثناء الحرب هي التي تُخرجه من طوره حيناً بعد حين.

أما ثاني الجُنديَّيْن فأمره مختلفٌ جدّا ، كان رقيقا ليّنا يحبّ الصغار ، ويلعب معهم في أوقات الفَراغ ، وكثيرا ما كان يشتري الحلاوةَ وشُكُوْلَاتَهْ ، ويُعطي كلَّ صغير جاء

إليه زائرا ، وكانتْ دعابتُه مع الصبيان تُرغبهم في الاقتراب منه وتُسقط في نفوسهم ما فيه من هيبةٍ وجلالةٍ عسكريّةٍ.

وإذا عاد في اللّيل كما يعود قرينه الجنديّ السابق ذكرُه ، فإنّ أهل الدار لا يشعرون بعودته ، أما الصّبيان فهم على ترصُّدٍ تامٍّ لقُدومه ، وكانوا ينتظرونه عند الباب الكبير الذي يدخل منه كلّ من في الدار إلى شَقَّته. وكانوا يعلمون أنه سيقف عند ذلك الباب وقفةً طويلة ، ويعلمون أنه سيُصغي إلى أصوات المارِّين به من ذلك الباب ، ويعلمون أنّه إذا سمع صوتا فسيذكر اسمَ صاحبه وسيقول في صوت مضطرب هادئٍ : (لا تصْطدمْ بي يا فلانُ وقد رأيتُك).

هذا كلُّه هو ما تعوّده الأطفالُ من سلوكه ، تعوّدوا منه أنه لا يستطيع أن ينظر بعينَيْه في المساء كلّما عاد من خانة الخمارة ، وإنما يعتمد على أُذُنَيْهِ ليعرفَ بهما كلَّ من يمرّ به ذِهابا وإيابا.

وإذا وصل هذا الجنديُّ الرقيقُ إلى باب غرفته يُخرج المفتاح من جيبه ، ويبحث به عن ثُقُبٍ يُدخل فيه المفتاح كي يفتح الباب . هنا يراه الأطفالُ دَهِشًا مُذهلا ، إذْ هو لا يهتدي

مُباشرةً إلـى الثقب الموجـود في أمّ المفتـاح ، لأنـّه لا يـراه ، ولا يترك الباب لغيره أن يفتحه ، لأنه لا يريد أن يعلم النـاسُ أنـّه مُسكر قد ذهب عقلُه ، بل يستمرّ في وضع المفتاح فـوق الثقب حينا ، وتحت الثقب أحيانا ، ويتردّد في هذا العبث إلى أن يتفجّر بالضّحكات كلُّ من حوله من الأطفالِ .

ثمّ إذا دخل هذا الجنديُّ غرفتـه وأراد أنْ يُضـيء المصـباح فإنّه لا يعلم طريق الإضاءة ، بل كلُّ ما في وسعه أن يفعل في هذه الحالة المضـطربة هـو أن يُضـيّع حِزمـة مـن الكبريـت ، حيث يُنير جميعَ الحزمة واحدا واحدا . ويضع كلّ ثقاب على المصباح دون أن يرفع زُجاجتَـه ، ودون أن يصـل إلى مُوقـده عن طريق الضغط والانضباط .

أما ثالثُ الجنود الـذي يسـكن معنـا في الـدار فـهــو شِـبْهُ جنديٍّ ، وهو ـ كما قيل ـ قد ذهب مع الـذاهبين إلى الحـرب العالمية الثانية . وكان شابًّا في ذلـك الوقـت . وكـان مُمَرِّضـا يعمل مع الأطبّاء البيض في أثناء الحرب ، وكان يُشاركهم في مُعالجة الجُرحى وتجهيز القَتلى ، فزادتْ خبرتُه الطِّبِّيَّةُ قبل أنْ تنتهيَ الحربُ ، ولما عاد إلى أهله ، وتَقاعدَ عن العمل ، أخذ

يُزاول المِهنة الطبية سرّا في حُجرته ، وأخذ يأخذ شيئا من المال من أهل الحيّ على خدمة طبّية أو تمريضية يُقدّمها لهم . وكان سِكّيرا يُعاقر الشَّراب دون أن يعلم أهلُ الحيّ ، ومُقامرا دون أن يجهر به لأحد من الناس ، إلا الصبية والنساء ، فهم الذين وقَفوا على هاتين الخصلتين من خصاله السيّئة المستترة .

كان هذا الجنديُّ المُمَرِّض يسلك سُبلا مختلفةً في إخفاء رغبته في الخمر والقمار . وكان يُحاول كلّ المحاولة على تضليل النّاس والتستُّر وراء الإبرة كلّما بعث صبيّا إلى زبائنه في خَانة الخمارة ، وكان يُعطي الصبي حقيبة أو إبريقا ، ويأمره أن يذهب إلى ساقية الخُمور ويقول : اذهب بحقيبتي هذه وقلْ لها : إن العمّ فلان يأمرني أن آخذ منكِ الدواءَ والأحقنة التي طلب منكِ شراءها في السّوق ! ثم يعقب حديثه للصبي بهذه العبارة : وعُدْ إليّ فوراً . وهنا يرى الصبي أن السّاقية قد ذهبتْ بالحقيبة الخالية إلى حُجرتها فتعود بها مليئةً بالبضائع المجهولة لأنها قد شدّت فمُ الحقيبة بالحبل المتين . وكان الجنديّ الممرض قد يبعث صبيّا آخر بالإبريقِ إلى

هناك ، فيعود الصبي إليه بعد دقائق وثوان بذلك الإبريق فيظنّ أهلُ الحيّ المارّون بالصبي أن ماء الوضوء هو الموجود في الإبريق لا ماءَ الخمر.

أما القمار فهو عمل يتعاطاه الجنديّ الممرض من حين إلى حين ، وكان يشتري كلّ يوم الأربعاء صُحفا مشهورة من الصحف المنتشرة في بلادنا ، وكان يدعو إلى حجرته الضيّقة كلّ صبيّ توسّم فيه الفطنة والذكاءَ ، ويُقدّم إليه المِجْهر ، ثم يُقدّم إليه صحف الأخبار واحدةً واحدةً ! ثم يبحث له عن موضع معيّن رُسم فيه «الكاريكاتوريا» ويأمر ذلك الصبيّ أن ينظر بالمجهر إلى تلك الصّورة الكاريكاتورية ، وإلى ما حولها من الرسُومات في دِقّة وإمعان ، هنالك يبحث الصبيّ عن كل رسم يشبه الأرقام الحسابية ، ويحاوره الجنديّ على ما يرى ، ويقول له في رِفْق وأناةٍ : انظر إلى ذلك الرّقم جيّدا ، أهو يشبه رقم «الثلاثة» أم رقم الثمانية ، لأن هناك التشابه في رسم صورة كلَيْهِما عند أهل الإنجليز ، وإذا رجّح الصبي واحدا منهما كما بدا له في الشّكل أو الصّورة ، دوّنه الجُنديّ في ورقة بيضاء لا يفارقُها في مثل هذا الوقت . على هذا النحو يسأل العم الجنديُّ كلَّ صبيٍّ ذكيٍّ عن الرسومات

التي تُشبه الأرقامَ شكلا وصُورة ، ويُوازن بين آرائهم وأقوالهم . ويُقيّد كلّ ما صحّ في نظره من هذه الآراء والأقوال ، ثـم يُقـدّم تلك الأرقام المنتخبة إلى مجلس إدارتها للتجربة والامتحـان ، فيفوز الجندي مرّة ، ويخسر في مرّات عديدة .

على هذا النحو كان الجنـديّ الممـرض يجـربني في ذلـك العمل الخبيث ثلاث مرات ، فـنجح مـرّتين وأخـذ يُقـدّم إلـيَّ رشْوة يُفاجئني بها ويفاجئ أبي عليها ، وكان أبي لا يعلم شيئا عن هذه المُقـامرة ، وكـان يظـنّ أن أخـاه الجنـديَّ الممـرض يُحسن إليه وإلى ابنه بهذه النّفقات كعادتِه من قبلُ ، لأنّـه كـان سمحاً كريما ، كثيرَ الإحسان إلى أهل الحيّ والأقارب . لكـنْ لم يلبث أن تبيّن الأمر ، وضاق أبي بهذا الأمـر أشـدَّ الضّـيق ، فلم يستطعْ كتمانَه على شدّة ما حاول من ذلك ، وإنما تحدّث به إلى أعمامه وخالاته ، ولمح لهم على استحياءٍ بأنّ من الخير أن يحذِّروا ذلك الجنديَّ على المقامرة ويمنعوه عن أن يحمل أبناءَ الدار على سبيل الغيّ والضّلال . فاجتمع القوم مساءَ يومٍ حول الجنديّ وحذّروه وهدَّدوه ، وأنكروا عليه هـذا الغلـوَّ في تبذير المال لشراء الخمـر ولعـب القمـار ، فأجـابهم في ذلـك

اليوم إلى ما يريدون كارها مُكرها ، ثم ثـاب إلى رُشـده بعـد حين ، وتاب إلى الله على مرْأَى أعيُن النّاس .

هكذا كان عبثُ الجنود بعـدما عـادوا مـن الحـرب . ولقـد ظهـر في آخـر الأمـر أن جُهـودَهم في تحصـيل العلـم قبـل الذِّهاب إلى الحرب كانتْ ضئيلةً جدًّا . وكانتِ الدَّولةُ لا تُريد أن تحتفظَ بالجنود الأُمِّيِّين فرأتْ من الخـير أن تُوَظِّـف قلـيلا من الذين تعلّموا إلى المستوى الثـانوي في التعلـيم المـدني ، وتُطلق سَراح المقصرين خوفا من العبـث والفسـاد في النّظـام العسكري الصّارم .

كذلك عاد هؤلاءِ الجنود إلى ديارهم فارغين بطَّالين ، كانوا متقاعدين عن العمل ، ومُعطَّلِين في أمور الدولـة ، ولم يلبـث أن كانوا يُواجهون مرارةَ العيش بعد ما ذاقـوا حلاوتهـا بغنـائم الحرب في أيّامٍ قِصار. وكانوا لا يجدون ما يعينهم على تلـك الحياة القاسية إلا عبثا ، فعبثوا فوق ما يتصوّره العقلُ .

هنا نهض كبارُ حارتنا ، من الذين يخافون مصيرَ المجتمع ، وتشاورُوا فيما بينهم ، وفرضوا ـ بعـد هـذه المشـورة ــ علـى

جميع أبنائهم تحصيلَ العلم وخاصّة التعليم المدني ، وهم يرون في ذلك أنّه هو أنجح وسائل في النُّهُوض بالمجتمع .

وكان أبي يميل إلى هذا الرأي في بدايةِ الأمر ، لكنّه عدل عن ذلك بعد حين لسبب لا أزال أذكرُه حتىّ الآن ، ورأى في هذا السبب أن التعليمَ الديني هو الذي يضمن لأبنائه صلاحاً في المُستقبل .

(٤)

كان أبي يعمل في مصنع الكِبْرِيت ، وهو لا يعود منه إلا المساء ، وكانت أمّي هي التي تقوم برعايتنا كلَّ صباحٍ ونهارٍ ، وكان ذِهاب أبي إلى عمله يُعطينا ـ نحن أولاده ـ فرصةً اللّعب بكثير . حيث نذهب إلى ميدان معهد « ربوة السنّة » في حارتنا ، ونلعب بالكرة أو بالدرّاجة الهوائيّة إلى ساعات الغروب .

وكان أبي رجلا مُهابا يخاف منه كثيرٌ من الناس وخاصة أزواجه وأولاده ، وكان متشدِّدا لطّاماً وجلاّدًا ، لا يحب لأولاده هذه الألعابَ المُرِيحة . لذلك كانت عودتُه من العمل تُحزننا نحن صغار الحيّ بكثير ، ويضطرّنا إلى السكون والتسلُّل في كثير من الأوقات ، وكان يرى في تسلّلنا هذا حُرْمَةً وأدباً يجب على كل صغير أن يلتزم بها أثناءَ حُضور الكبار ، وكانت نساءُ الحي يأتين إليه بكل صبيٍّ مُفتن

أو متمرِّدٍ ، كي يأخذَ نصيبَه بعد الحُكم من هاتين العُقوبتَين : اللّطمةِ أو الدُّرَّة .

وكان أبي رقيباً على الأطفال ، وكان يجول ببصره في أركان البيت أو المسجد كلَّما عاد من العمل ، ويتفقَّد أحوالَ الأطفال وخاصة بعد صلاة المغرب ، وإذا رأى مرورَ واحدٍ منّا يُوقفه وقفةً قصيرةً ، ويُلقي عليه هذا السؤال المعتاد : هل صلَّيْتَ المغربَ ؟ ويُجيب الصبيُّ في صوتٍ مضطربٍ : نعم قد صلّيتُ ، يقول الشيخ : في أيّ مسجدٍ صلّيتَ المغرب ؟ يقول الصبيُّ في مسجدنا هذا ، هنا ترى الشيخ ينظر إلى هذا الفتى من بَنِيهِ أو بني أعمامِه نظرةً مستأْنيةً كأنّه يتفرّس فيه ويقول في صوت متقطِّع : والله ما صلّيتَ المغرب! وبعد هذا التكذيبِ الفاضحِ يهوى الشيخُ على خدَّيْه بلطمة قويّة تلقي رعونة في جسد الصبيّ كلّه . ويفرّ هذا الصبيُّ من لطمات الشيخ كما تفرّ الحُمُرُ من قَسْوَرَةٍ .

والحقّ أنّ أبي قد صدق في زعمه هذا وأصاب في تفرُّسه ، لكن كيف كان يعلم أنّ هؤلاءِ الصِّبيانَ لا يصلّون المغرب ، هذا ما يسأل جميعُ الأطفال الملطَّمين أنفسَهم عندما لقِي بعضُهم بعضاً ، وهم لا يدرون لهذا السؤال جوابا . وجاء ذلك اليوم وحصل ما يحصل من اللّطمة ، فصرخ الكبارُ الحاضرون

من أثر دويّ اللّطمة ، وهم يُعاتبون أبي ويشكُونه على تشـدُّده في أمور الدين ، وسأل سـائل مـنهم : كيـف تعلـم أن هـؤلاء الصّبيان لا يصلّون معنا في المسجد ؟ فتبسّمَ أبي ضاحكا من قول السائل، وأجاب في أمْنٍ وثِقَةٍ : أنا أنظر إلى أَرْجُلِهِمْ كلَّما رأيتُهم من حيث لا يعلمون ، وإذا وجدتُ عليها غُبارا مُتطايِرًا أعلم بذلك أنـّهم يعودون من ميدان اللعب ولا يصلّون ، لكـن إذا وجدتُها طاهرةً نقيّة ، أعلمُ أنـّهم قد طهّروها بماء الوضـوء بعد ما انتهَوْا من اللعب وشاركُونا في الصلاة .

هنا ظهر لكلّ واحدٍ من الصبيان أنّ أبـي لم يكـنْ متفرِّسـا كما يتوهّمون ، ولا يعلم الغيبَ كما يظنّون مـنْ قبـلُ ، وإنمـا هو ينظر إلى أرجل الصّبيان ليعلم أكانت هي مُغبرّةً أم طاهرةً نقيّةً ، فيبنى حكمَه على هـذه الظـاهرة الغريبـة ، أمـا صـغارُ الحيّ فقـد لجـأوا إلى كيـدٍ آخـر عنـدما فاجـأهم أبـي بتلـك الطريقةِ التي كان يسلكها في القبض عليهم فأخذوا يمكرون به كما كان يمكر بهم ، حيث بدأوا يغسلون أرجلَهم بعـد اللعـب والمباريات ويعودون إلى ديارهم دون وضوءٍ ولا صلاةٍ . وقد يلتقي أبي واحـدا مـن هـؤلاءِ الصّـبيان ، ويُلقـي عليـه سـؤالَه المعتاد ، ويجيب الصبيّ بما يُقنعه ويُرضيه ، وينظـر أبـي إلى رجلَيْه ويرى أنـّهما على خير ما يُرام ، ويُخلّي الطريق للصبي ويمضي في شأنه بلا لطم ولا ضرب .

وذات يوم انقلب أبي فجأةً ، وسلك طريقة أخرى لا يخطر ببالنا قطّ في حياتنا . وها هو يلقي علينا سؤاله الغريب عند ما التقيناه على طريق الدار بعد صلاة المغرب .

- هل صلّيتم المغرب ؟
- نعم ! صلّينا
- ما هي السورة التي قرأها الإمام بعدَ الفاتحة في الرّكعةِ الأولى؟ فأجاب واحد منّا في جُرْأةٍ وإقدامٍ : قرأ الإمام سورة الماعُون.
- وأنت ما هي السورة التي قرأها الإمام بعد الفاتحة في الركعة الثانية ؟

قال صبيٌّ آخرُ : سورةَ الكوثر . هكذا كان يلقي سؤاله على كلّ صبيّ ، وهكذا كانوا يُجيبونه في الشّجاعة والاجتراء ، والحقّ أن هؤلاء الصّبيان لم يصلّوا في ذلك اليوم وراءَ الإمام ، لأنّي صلّيتُ مع الجماعة ولم أجد أحدا منهم في ذلك الوقت ، ولقد رآني أبي قبلَ الصلاة في فناء الدار ، ورأيتُه كذلك ذاهبا إلى المسجد ، فانضممتُ مسرعا إلى الجماعة خوفا من عُقوبته ، ولما أخذ هؤلاء يجيبونه الآن بما يُملي عليهم شياطينُ الكذب ، نظر أبي إليّ وقال : ماذا ترى أنتَ ؟ قلت : قد كذبوا فيما يقولون ، فأخذتُ أذكر جميع السور التي قرأها

الإمام في جميع الركعات ، وكان أبي يُصغي إلى كلامي ويُهزُّ رأسَه كأنّه يُصدّقني بذلك الإهزاز ، ولما فرغتُ من كلامي لم يلطم أحدا منّا كعادته ، ولا يحمل دُرّته كما نتوقّع منه في مثل هذه الحالة ، وإنما نظر إلينا فأطال النظرَ ثم قال في شيء من القسوة : لأحملنّكم على الطريق غدا إن شاء الله ، وما أظنّ أن التعليمَ المدني الذي نُنفق عليه أموالنا في هذه الأيّام سيُوصلكم إلى الغاية التي نُريدها لكم ، انظروا إلى أحوالكم الآن أنتم تتهاونون بالصّلاة كلَّ يوم ولا تبالون ، فأيُّ خير في ذلك التعليم الذي لا يَمْنَعُكم من هذا التّهاون ! اذهبوا إلى حاجتكم فإن لي معكم غدا شأناً أيَّ شأن ، وسترون أنّني سأخرجكم من هذه المَهاوي والمَهالك ، ولأذهبَنَّ بكم إلى من يحملكم على الطريق الجاد .

وفي صَبِيحة اليوم التالي ساقنا أبي ـ أنا وإخوتي الأشقّاء ـ إلى من يحملنا على هذا الطريق الجاد ، وبدأنا عنده حياةً جديدةً لا عَهْدَ لنا بها منْ قبلُ .

(٥)

كان هذا الطريق الجادّ الذي يُريده أبي لأبنائه هو طريق التّعليم الدّيني ، وكان عمِّي الإمامُ عليٌّ جَبَتَا هو أوّل من سلك بنا هذا الطريقَ ، وكان شيخا صُوفيًّا ، عاد من السِّنغال حينما كان كهلا وبعدما لبث فيها بِضع سنين ، وكان يُحدّثنا أنّه مكث زمنا غيرَ قليل في جُمْهُورِيّة « غانة » وكان يرى أثناء إقامته فيما يرى النائمُ أنّ الشيخ إبراهيمَ الكَوْلَخِيَّ الذي هو شيخُه ومرشدُه قد نزع منه العمامةَ التي لفّ بها رأسه فعبّر الإمام عليٌّ عن هذه الرّؤيا أنّ عودته إلى مسقط رأسه يجب أن تتمّ في أقرب وقت ممكن ، لأنّ شيخَه قد رفع عنه إذن المُكث بتلك الرُّؤْيا ، ويأبى له أن يُواصل حياته في جمهورية غانة ، فعاد الإمام عليٌّ إلى « إِلَوْرِنْ »، وكان غزيرَ العلم كثيرَ التَّرحال ، وكان لا يشتغل في كل بلد نزل فيه إلا بالتعليم والدّعوة ، وهذا قد مهّد له الطريقَ بعد عودته في اكتساب ثِقة

أبي وأمثاله في تربية أبنائهم وتعليمهم إيَّاهم ما يُسعدهم في المستقبل من أُمور الدين .

ولقد أذكر فيما أذكر أنَّ الإمامَ عليًّا هو أوّل من أقعدني وإخوتي على الكراسي في دِهْلِيزِ بيته. ونصَب على الحائط لوحتَه السّوداء وأخذ يعلّمنا حروف الهجاء في كتاب « قاعدة بغدادية » وأخذ يُعلّمنا كيف نلوي الألسنة ونمدّ الشّفاه ، ونوسع الحلوق ، ونباعد بين الألسنة وسقْف الفم ، لننطق بهذه الرّطانة العربية ، وهذا كلُّه غريبٌ يومئذ في حيٍّ الفُلاتة .

وكان النِّظام التقليدي هو الذي ساد في مُعظم أحياء « إلورن » في ذلك الوقت ، حيث يكتب المعلّمُ على لوح الصّبي بالمداد والدّواة آياتٍ من القرآن الكريم ويجلس الصبيّ في زاوية من زوايا المسجد وينعطف أعلى جسمه على أسفله فكأنّه كُرَةٌ ، ويقرأ تلك الآياتِ إلى ما شاء الله .

وليس من شكٍّ أنّ هؤلاءِ العلماءَ التقليديِّين لا يُحِسُّون في تعليمهم التّقليديِّ جُمُودًا ولا قُصُورًا ، وكانوا ينظرون إلينا أثناءَ التعليم ويغمزون ، وكانوا يضحكون أحيانا ويستهزءون حين كان الإمام يعلّمنا كيف نلوي اللّسان ونمدّ الشّفتين ونُخرج هذه الرطانة العربية إخراجا ، وقد يخلو واحد من

أبنائهم إلينا إذا انتهينا من الدّرس ، ومضى الإمـام إلى شـأنه ، ويقول لنا في شيء من التهكُّم والازدراء : أيّ نـوع مـن العلـم هذا ؟ علم القَاف والكَاف ، العلم الذي يُؤخذ علـى الكراسـي دون الحصير ، أنتم تُضيّعون أوقاتَكم على علـم لا خيرَ فيـه ولا بركةَ . كذلك كانوا يقولون وكذلك كانوا يتّهموننا بالعبث والفسق والفجور ، ونحن نتّهمهم بالجمود والحمَاقة والقصور . وقد ينتهـي بنـا هـذا الاتِّهـامُ أحيانـا إلى خصـامٍ عنيـفٍ ، وإذا جماعةٌ من أصحابنا يتيهون عليهم بهذه الرطانة التي يسـمّونها لغةً عربيّةً ، وإذا هم في ثورة واضطراب ، لأنّـهم لا يفهمونهـا ويحسبون أنّ جماعتنا يلومونهم بتلك اللغة التي لا يُجيـدونها ، فيكادون يموتون غيظا ، وهنا ترى أصحابَنا يتهامسون فيمـا بيـنهم بحـديثٍ لم يكـن تَبيّنـه ثـم يضـحكون ويُغرقـون في الضحك ، وقاتل الله مَكْـرَ الأطفـال ! فـإن أصـحابَنا يعلمـون أنَّـهم لا يجيدون هذه العربية إلى تلك الدّرجة التي يتخاطبون بها ويتلاومون ، لكنّهم يمكرون بأبناء العلماء التقليديّين مكرا ، ويلوون ألسنتهم وأفواههم ، كمـا يتواصـى بعضُـهم بعضًـا في تهامُسِهم ، فيتوهّم السامع أنّ بلاءهم في التعلـيم العربـي غـيرُ قليلٍ .

على هذا النّحو نتقدّم في الدّروس العربية عند الإمام عليٍّ كلَّ يوم ، وكنّا نختلف إليه أوّل النهار وآخرَه وإبانَه ، مُظهرِين الجدَّ والنشاط في أوّل الأمر ، ثم بعد عامٍ أو عامين أخذ الأطفالُ يفترون ويضعفون ثم يُظهرون الكره والملل ثم ينقطعون من الدرس حينا بعد حين ، وبعد ثلاثة أعوام غاب جماعةٌ من الطلبة غيابا لا عودة بعده ، وبقِي أنا وأربعةُ شُبَّانٍ آخرِين يتلقّون الدروس من الإمام ، من نحو وصرف وفقه وحديث وتفسير ، وكانت دروسُ النّحو عسيرةً حقّا ، وكان أسلوبُ الإعراب عند الإمام عليّ لا يزال يُضحكني حتى الآن ، وكان يُملي علينا إعراب « جاء زيد » على النحو التالي :

جاء : فعل ماضٍ مبنيٌّ على الفتح .

زيد : فاعل مرفوع بضمة ظاهرة . وكان الإمام لا يكتفي بهذا القدر ، وإنما يضيف إليه ذكرَ مواضعَ أُخْرَى تَظهر الضمّة في آخرها ، فيقول مثلا : لأنّ الضمّة تكون علامة للرفع في أربعة مواضعَ : في الاسم المفرد ، وجمع التكسير ، وجمع المؤنّث السالم ، وفي الفعل المضارع الذي لم يتصل بآخره شيءٌ . هكذا كان إعراب « جاء زيد » عند الإمام عليّ ، وإذا

نقص الصبيُّ شيئا من هذا الكلام الفارغ بعد الفاعل فقد رسب عنده لا محالة .

وكان الشيخ عليٌّ يمتاز بشيء من القناعة ، وكان لا يتشدّد في أخذ رواتبه الشّهرية ، وكان هذا التعليم على الرغم مما يأخذ من أوقاته شبهَ مجّان ، وكان آباءُ التلاميذ ينقدونه « شِلِّينًا » آخر الشهر ، وكان أبي لا يُؤدّي نصيبه إلا إذا بلغ دَينه جُنَيْهًا ، وكان هؤلاءِ الآباء يشقّون على أنفسهم حين يدفع كلٌّ منهم نصيبه من هذا الجنيه أو الشلينات .

وكان الشيخ عليٌّ يمتاز بشيءٍ آخرَ كان أشدَّ وأقوى ، وهو فهْمُ أوضاع البلد وأساليب أهله في التصور والحسّ والشعور والحياة بوجه عام .

على أنّني رأيتُ أثناءَ مكثي عنده أنّ هناك وسيلةً أخرى للوصول إلى أساليب أهل البلد في حياتهم الخالصة وهي الإمعانُ في معرفة أساليب علمائهم خاصة في المعاش والأحوال والسلوك ، والإمعان في تفهُّمها وتعرُّف حقيقتها تعرّفا قد يفيد الجيل الصاعد في التّاريخِ .

(٦)

كان على مَقْرَبَةٍ من بيت الإمـام علـيٍّ بيـتٌ آخـرُ يُقـام في دهليزه مجلسُ العلم كلَّ صباح ، وكان أهل المدينة يأتون إلى هذا البيت ، وكان أهلُ القرى يأتون كذلك من كلّ فجّ عميق ، وكلُّ هؤلاء الكبار لا يقصـدون هـذا البيـتَ إلا لأجـل علـم واحـد ، أو تقـول إنّ هـؤلاءِ الكبـارَ لا يـأتون إلا لأجـل أن يلتمسوا ما اشتهر به أهلُ هذا البيت مـن العلـم ، وهـو علـم الفقه . وكان النّاس يأتون إلى ربّ هذا البيت ليتعلّمـوا فُـروع الفقـه لا أصـولها ، وكـان بعـضُ أئمـة المسـاجد وعلمائهـا يستزيدون كلّ صباح من هذا الفقيه ، ثم يعودون إلى أعمالهم بعد العاشرة كلّ يوم ، ولم يلبـث أنْ كـان تلاميـذُ هـذا الفقيـه ليملأون المدن والقرى فأصبح مُعظم طلابـه فقهـاء منبـثِّين في أرجاء بلاد يوربا .

وكان هذا الفقيه يبدأ بطلابه من علم الفقه البسيط إلى علـم الفقـه المركّـب ، فيتعلّمـون منـه مـتن العشـماوية ثـم مـتن

الأخضـري ، ومنظومـة القـرطُبي ، ثـم أوضـح المسـالك في مذهب الإمام مالك ، ثم كتاب المدوّنة الكبرى لابن سَحْنُون ، ثمّ مختصر خليل الذي يُعدّ كتـابَ الفقـه الأكـبر للمـتفقّهين . وقد يُضيف الفقيه أحيانا إلى الكتـب الفقهيـة المقـرّرة تفسـيرَ الجلالين للسّيوطي وأحمد المحلّي ، والعشرينيات والوسـائل المتقبلة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم ، وما إلى ذلك.

وكان هذا الفقيه قد احتلّ مكانةً مرموقـةً في بلـدنا ، وكـان بِكْرُهُ هو الذي ينوبه في الإمامة عند ما كبُر وشاخ ، وكان بين بكره هذا والإمام علـيٍّ حـربٌ سِـجَالٌ في العلـم وخاصّـة في مسألة الأذان والإقامة قبل الصّلوات المفروضة .

كان الإمام عليٌّ قد دخل المسجد ذاتَ يوم في وقت الفجر وفي أوّل قُدُومِـه إلى « إلــورن » بعــد ســفره الطويــل إلى « السّنغال ». وصعد الشيخُ علـيٌّ الحجـر الصّـلب الموكـل إلى ركن من أركان المسجد فبدأ يؤذّن ويُذيع صوتَه الرقيق في كلّ أرجاء الحيِّ ، فسُرعانَ ما انـبرى الفقيـهُ مـن داره مُهَـرْوِلاً إلى المسجد فأرغى وأزبد ، وجمجم بهذا القـول القاسـيّ الشـديد عند ما وصل إلى الإمام المؤذّن : « قاتلك الله يا عليٌّ ! ولعنك اللّاعنون ! من الذي أمرك بهذا ؟ وفي أيّ كتابٍ قـرأتَ جـواز

الأذان قبل الصلوات المفروضة ؟» . كذلك بدأ النقاش حول هذه المسألة ، وانتهى بهم هذا النِّقاش إلى بلاط الأمير ، حيث لقي بعضهم بعضا ، وحيث حمل كلّ عالم معه الكتب العلمية بعضها مرقّعة ومغبرّة ، وبعضها قَذِرَةٌ سيّئة الجلد . فأخذ كلٌّ يُلقي دلوه في المسألة بدليل من الكتاب والسنة ، فخرج الإمام في نهاية الأمر غالبا ظافرا.

ومنذ ذلك اليوم كان العِراكُ قائماً بين الفئتين وطلابهم ، لكنّه عراكٌ باردٌ لا يظهر حتى يختفي ، وكان الإمام عليّ شديدَ التحفُّظ والحذر كلّما يرى ما تأباه العقول الناضجة من سلوك هؤلاء المختصمين في الحيّ عامة وفي المسجد على وجه خاص ، وهو لم يستطع أن يجهر برأيه أمامَهم خوفا من إثارة الضجيج مرّةً أخرى .

ثمّ كان ابن الفقيه ، فإنّه رجلٌ غريبٌ حقّا ، وإنّه يتقلّب بين أساطين المدينة وساساتها ، ويختلط بأولئك النّاس في خيرهم وشرّهم ، ويمضي حياته بينهم في مُتعةٍ لا زُهْدَ فيها ولا وَرَعَ ، وكان يوم الزّينة عنده يوما عظيما ، فإنه يأخذ ما طاب له من اللّباس ، ويكون لون لباسه مناسبا للون نعلَيْهِ وطاقيتهِ ، أما إذا كانت الطاقية تحتاج إلى العمامة فإنّه يختار من العمائم

ما يلائم لونها سرباله وسرواله ، ثمّ يتّخذ لرِجْلَيْهِ حِذاءً يلمع كالبرق ، ثم يخرج ، وكان خروجُه أحيانا يقتضي أن يظهر في جلالة وأبّهة وضخامة ، فيرافقه جموع من طلاب أبيه ، فيمشي بينهم في زهْو واستكبار . ثم إذا عاد من هذه النّزهة وحان وقت الصلاة فإنّه يخلع ذلك اللباس المزخرف ويلبس قميصا لا أناقةَ فيه ولا ظرافة ، ويصلّي بالنّاس في ذلك اللباس البالي المرقّع ، وإذا سأله سائلٌ عن هذا التصرف الغريب يقول في شيء من البداهة : « هذا اللباس البالي هو لباس التّقوى ، أما الذي ألبسه يوم الزينة فإنّه لباس الدنيا لا يمكن لي أن أصلّي به أو أؤمّ به النّاسَ » ، فما أكثر أشياء غريبة أذكرها اليوم عن الفقيه وبكره وجماعته وأضحك وحدي حين أذكرها .

وأذكر أنّ ابنَ الفقيه قد بنى قصرا يسكن فيه وأهلُه ، أما المسجد الذي يصلّي بالنّاس فيه فإن بناءه لا يتمّ في ذلك الوقت ، وليس المال ـ فيما أعلم ـ هو الذي ينقصهم وإنّما هو العلم ، فإنّ ابن الفقيه وجماعتَه هم الذين يرون أنّ المسجد يجب أن يصل المطرُ إلى داخله حين نزوله من السّماء ، فكان المسجد منذ بنائه لا يتجاوز مِدْمَاكًا أو مدماكَيْنِ .

على هذا النّحو الغريب من الفهم قد قرأوا كتب الفقه وحفظوا متونها وتفنّنوا في فروعها وقلّبوا معانيَها إلى مفهومهم الخاص فأغرقوا أنفسهم في بحر الجمود ، وأبعدوا أتباعهم من الطلبة عن كل شيءٍ متطوّر حديث . إلا ابن الفقيه وهو الذي يقابل خالقه بالجمود ويؤثر نفسه بطيّبات الحياة وملذّاتها . وكان هؤلاء الفقهاء الجامدون ، إنْ جاز أن نسمّيهم الفقهاء حقا لا يتوضّؤون بمياه الأنابيق الحديثة وإنّما يتطهّرون بمياه البئر فقط لا غير ، وكانوا لا يصلّون في المساجد التي لا ترى نور الشمس ولا ينزل فيها المطر ، وإنما يصلّون في المساجد التي خلت من الأبواب والنوافذ والسُّقوف وكثرت فيها روثُ البهائم .

والعجب في هذا كلّه أنّ هؤلاء الفقهاء كانوا أشدء إيمانًا بهذه الطريقة التي سلكوها في حياتهم ولا يحيدون عنها قيدَ شِبْرٍ ، وكان الإمام عليٌّ يرى هذا كلّه ويسكت على كره ومضض ، وكان يعلم أنّ خِطابَه مع هؤلاء الفقهاء خطابٌ لا يُفهم ، فسار معهم سير الجار بالجار لا خصومةَ بينهم ولا جدالَ .

(٧)

وعلماءُ الولائم ، كانوا آخرين من علماء الدَّهَالِيزِ ، وكـانوا مُنبـثّين في هــذه المدينــة ومـا حولهـا مــن القُــرى ، وكــانوا يجتمعـون في الـدِّهليز كلّمـا دعـاهم إليـه صـاحب الوليمـة ، وكانت الولائم كثيرةً ومتنوّعة ، وأعظمها هي وليمةُ القرآن .

كان الشّيخ المعلِّم يُكلّف تلميذَه الصبيَّ الوليمةَ الصُّغرى إذا أتمّ قـراءةَ جزء عمّ من القرآن ، والوُسطى إذا أتمّ قــراءة يـس أو الكهف ، والكبرى إذا اختتم القرآن كلّه ، وكان لكلّ وليمـةٍ أجْرٌ ، فأمّا الوليمة الصغرى فأجرها دجاجة وقطعة من السكّر والقصب والفول ، أما الوليمة الوسطى فأجرها خمسة شلينات وجدع من الشاة ، وأما الوليمة الكـبرى فأجرهـا بقـرة وجُنيـه واحد .

وكان الشّيخ المعلّم وأبناء الدّهليز همُ الّذين يحتفلـون مـع صاحب الوليمة في الصُّغرى والوسـطى ، يفرحـون وينشـدون

ويأخـذون نصـيبهم مـن الحلـوى والفـول وينتشـرون بعـد الغـروب ، ولا يكـاد أهـل الحـيّ يشـعرون بمـا يجـري في الدهليز من ابتهاجٍ وسرورٍ .

أما الوليمـة الكبرى فهـي حفلـة عظيمـة يحضـرها الأئمـة والعلماء وعامّة الناس ، وكان الشّيخ المعلّم يخلو إلى صاحب الوليمة قبل طلوع الشمس ويقرأ له سورة الفاتحة مـن جديـد ومطلـع سـورة البقـرة إلى قولـه تعـالى ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، ويطلب منه أن يُعيـد القـراءة ، ثـم إذا أجـاد الفتى تلك القراءة يكثر المعلّم الدعاء ويهمهم بكلمات أخرى لا تُسمع ، ويُلقي ضروبا من البخور في المجمر ، ويطوف به البيت ودهاليزه ، ثم يأمر تلميذه بعد حين أن يخرج إلى حلقة العلماء والأئمة وعامّة النّاس .

وفي هذه الحلقة أصواتٌ مختلفةٌ مختلطةٌ ، ومناظرُ متنوّعةٌ رائعةٌ ، كلّها تعابير عن الابتهاج والسّرور ، ولقـد هـبط مـلاكُ الفرح والنشاط حقّا ، وكان أنشط الناس في هـذه الحلقـة هـم العلماء والأئمّة ، وهم الذين سيُدبّرون أمـور الجلسـة ، ليقـرأ فيها صاحب الوليمة ولتخرج الشلينات من جيُوب النّاس بعـد قراءتـه ، وكـانوا قبـل اليـوم يحرصـون علـى تعلـيم الأبنـاء

وتهذيبِهم وكانوا يستدينون من حينٍ إلى حينٍ ويثقل عليهم أداء الدين ، وكانوا يَطمعون في أنْ يسدّوا دَينهم ويروى غُلّتهم في مثل هذا اليوم الذي تُجمع فيه الهدايا والصّدقات ، وكانوا يلتمسون هذا كلّه عند الآباء والأمّهات بوليمة القرآن وغيرها من الولائم.

أما صاحب الوليمة في ذلك اليوم فكان في شُغل كبير . كان يحبّ أن يتّخذ من القماش أكبرَه حجما وأوسعه جيبا فيدخل فيه ويلفّ رأسه بالعمامة ، ويمشي إلى حلقة العلماء في هذه الزينة فكأنّه طاووس قنبري يجرّ وراءه أذيال قميصه في زهْوٍ واستكبار.

أما الإمام الأكبر في هذه الحلقة فكان أسعد النّاس حظّا وأجلَّهم كرامة ، وكان لا يظهر إلا في جُبَّة وقفطان ، وقد ينتفخ بطنه تحت اللِّحاف وقد يضمر ، ذلك على قدر ما يدرّ عليه الرزق في الولائم التي يُشرف عليها من حين إلى حين ، وكان ينزل في جلسات الولائم ويرحل في أبهة وضخامة ، وكان نزول الإمام الأكبر شيئا يرغب فيه أهلُ الوليمة رغبةً شديدةً لأنّه يمكّنهم من الفخر والاعتزاز ورفع الرأس بين أهل الحيّ ، ويكره هذا النزول طائفةٌ من علماء البلد ، لأنّ

الإمامَ الأكبر إذا نزل ، ولله ما كان يحدث من المشاغبات بين العلماء الصِّغار وأئمّتهم ! وإذا رحل ولله ما كان يحدث بينهم من الحقد والبغض والشّحناء ، ولقد كانت أجور الوليمة هي مصدر هذا كلِّه ، كان الإمام الأكبر طمّاعا في هذه الأجور وكان علماء البلد طمّاعين كذلك ، فكان بعد الجلسة شرٌّ لا بدّ منه ، حيث كان الإمام الأكبر يأخذ من أجور الوليمة نصيب الأسد ، ويترك للعلماء الصّغار وأئمتهم بصيصا من المال الذي لا يُسمن ولا يغني من جُوع .

أما الوليمة نفسُها ففيها الصّياح والغناء قبل قراءة القرآن وفيها الضجيج والضّوضاء التي لم يكنْ لها حدّ بعد القراءة . ثم يتصاعد الدّخان ، ويستهلك أهل الوليمة شيئا غير قليل من القمح والسّمن واللحم والبقل وما إلى ذلك ، وكانت الوليمة تكلّف صاحبها أحيانا الاقتراض لشِراء ما لا بدّ منه من البقرة والطنبول ، فيوزّع جزءا منها على أهل الحيّ والأقارب .

كذلك كانت الوليمةُ في هذه المدينة ، وهي تُقام على مرأى أعيننا ومسمع آذاننا ، ونحن في تلك الأيّام ـ تلاميذ صغار ـ يصطحبنا الإمام عليٌّ إلى تلك الولائم مرّة أو مرتين في الأسبوع ، وقد نعود منها ولا يحصل الإمام عليّ إلا على

قرش أو قرشين ، وإذا كثرتِ النقود فإنّ نصيبه فيها لا يتجاوز شلينا في معظم الأحيان . وكان الإمام عليّ لا يحبّ أن يصطدم بغيره على أمور المال ، لذلك كان يرضى على كل حال بكل ما أُوتي له من نصيب مهما قلّ أو أقلّ من القليل .

أما نحن تلاميذه ، فَكَمْ نتحدّث عن هذه الولائمِ وما يحدث فيها بين العلماء من جور كثير وشرّ مستطير ، وكم يقول قائلٌ منّا إذا خلا بعضنا إلى بعض : « هذا الطريق الذي يسلكه علماؤنا في ابتغاء القُوت طريق شوك وحجر ، فيجب عليهم أن يحسّنوه أو يبحثوا عن طريق آخر يضمن لهم العيش الرغد في المستقبل » .

(٨)

ثمّ علماءُ الجَلْب ! وما أدراك من علماء الجلب ؟ فحسبك أنْ تعلم أنّهم أشدّ منْ غيرهم تأثيرا على السّلاطين والعظماء وكثيرٍ من الناس ، فيهم علماء الرّمل وفيهم علماء الحساب ، وفيهم علماء التّنجيم وفيهم علماء آخرون لا أدري كيف أسمّيهم وإلى أيّ صنف ينتمون ، فليكن اسمُهم علماءَ الطبّ الروحاني.

كان هذا الصنف من العلماء صِنفا عجيبا ، وكان الناس يتقاطرون عليهم من كلّ وجه ، ويقصدونهم من كلّ نحو ، وكان المعوزون والمعدمون أشدَّ الناس تقاطُرا عليهم وتلهُّفا . كلّهم جائع يريد أن يُطْعَم ، وكلّهم محروم يريد أن يُعْطَى ، وكلّهم قد ظهر في وجهه البؤس وألحّ عليه الضّرر . وإذا هم ينهضون متثاقلين إلى من يواسيهم ويُنقذهم من هذا المهلك ، ويفرّون بأنفسهم من هذه المدينة التي اختلط فيها البؤس

والنعيم ، وامتزجت فيها الضرّاء والسرّاء ، وسعد بعض أهلها حتى ضاقوا بالسّعادة ، وشقِي بعض أهلها حتى ضاق بهم الشقاء ، وكان جلب منافع السعادة ودفْع مضرّة الشقاوة هو الذي فرض على أهل هذه المدينة الفرار ، ويرون أنّ الفرار يجب أن يكون إلى عباد الله لا غير . وكان عباد الله في رأي هؤلاء القوم هم علماء الرمل وعلماء الحساب وعلماء التّنجيم .

وأذكر فيما أذكر أن شيخَنا الإمام عليًّا كان يُجامل هذا الصنف من العلماء ، وكان يصانعهم ويُداريهم ، وكان يرى أنّ علماء الجلب ليسوا من أهل الله ، ولا من أهل الذّكر ، وإنّما هم يعملون لجلب حطام الدنيا وقضاء حاجاتهم وحاجات النّاس ، ومع ذلك كان يسلك معهم في معاملته سبلا مختلفة كلّها لا تخلو من مجاملة ومداراة .

نعم ! أذكر ذلك وأذكر أنّ أبي هو الذي لا يجامل هؤلاء الجلبيّين ولا يصانعهم ولا يداريهم وإنّما يلمّ بطائفة منهم إلمامة قصيرة أو طويلة ، ويطرق معهم في حديثه موضوعاتٍ مختلفةً ، كثير منها يتّصل بالدُّعابة والعبث الحلو أو المرّ ، وقليل منها يتّصل بالجدّ الصّارم .

ذلك أنِّي صحبتُه ذات يوم على هذا النحو إلى أخيه الكبير الشّيخ أبي بكر الصدّيق حيث مضى معي إلى داره في شارع البقر بالحي الفلاني ، وكان الشيخ الصدّيق يتعاطى علم الرمل والحساب ، وكان يتحدّث إلى النّاس عندما يتعاطاه في صوته الممتلئ الذي يستحب الجهر على الهمس ، وكان النّاس يهرعون إليه ليسمعوا حديثه ومشورتَه على أمر جليل لا يهدأ به بال ، وقلّما يخرجون من داره ولا تمتلئ قلوبهم الثقة ولا يغمر نفوسَهم الأملُ . وقد تراهم حين يخرجون من داره كأنّهم سلاطين قد ملكوا الدنيا ، وقهروا أهل الأرض ، وكان هذا كلّه يُغيظ أبي . وكان يرى أنّ هؤلاء القوم يؤمنون بما يسمعون لا بما يرون بأعينهم ، ويثقون بمن يزعم أنّه يعرف ما يحدث في المستقبل من موتٍ وحياةٍ أو توليةٍ وعزلٍ ، أو سعادةٍ وشقاءٍ . وكان ينكر هذا كلّه ، وينكر خاصة تلك الثقة التي يتمتّع بها أخوه الصدّيق أثناء الكلام ، والتي لا يشوبها خوفٌ ولا رجاءٌ ، ويتّهمه بأنّه مغرور في دينه ، حيث يتعاطى علم الرمل أو الحساب ، ويتكلم فيه ويؤمن به ويطمئنّ إليه كأنّه وحي ينزل من السّماء . هذا كلّه هو

ما يغيظ أبي وينكره ويتحدّث عنه ويتندر بأصحابه في أعين النّاس .

وجاء ذلك اليوم فاصطحبني أبي إليه ، وغدونا إلى داره مع الصّبح ، ومضينا معه وقتا كلّه نِقاش وكلّه جدلٌ . كان أبي قد جلس بين يديه ، وكان هذا الجلوس على وبر غنم تعوّد النّاس أن يجلسوا عليه عندما يأتون للاستخارة ، وبدأ أبي يشاوره في أمر أخيهم الأكبر الذي ألمّ به المرضُ إلماما شديدًا .

- ماذا رأيتَ في أنْ نحمل أخانا إلى المستشفى قبل فوات الأوان ؟ قال الشيخ الصديق في لهجة عربية جافّة : ما شاء الله ! ما شاء الله ! وأخذ يُلقي نظره إلى اليمين وإلى الشمال كأنّه يبحث عن شيءٍ ، فمدّ يده اليمنى فجأة إلى تلك القصعة البيضاء التي ملأها برمال البحر اليابسة ، فأخذ يضرب فيها الخطوط والأرقام فقال في صوت غليظ لا يخلو من ابتسامة رقيقة : قد فات الأوان يا أخي ! قد فات الأوان ، سيموت أخوك الأكبر في الساعة الثالثة غدا إنْ شاء الله تعالى! ، قال أبي في شيء من الغضب والسُّخرية : من علّمك هذا يا شيطانُ ؟ ومن يُدريك لعلّ ساعة الموت

بعيدةٌ ؟ قال الشيخ الصدّيق وهو يضحك ضحكة عالية : الله يا أخي ! الله يا أخي ! وهو الذي علّمني لا شيطان ، وهذا هو العلم ولا جدالَ فيه. قال أبي وهو يزفزف غيظا وخنقا: ما أتيتُ إلى هنا لتُخبرني عن ساعة موت أخيك ، وإنّ علم ذلك عند الله ! وإنما أتيتُ لتُساعدنا بالمال ، ولقد ساهم كل عضو من الأسرة بما استطاع ، وبقي أنت أنْ تساهم بنصيبك من أجور علم الرمل والحساب ، وأنت تعلم أنّنا لا نستطيع أن نعتمد على حديث الرمل ونترك أخاك مُتألِّمًا إلى أن يموت بلا عناية ولا شفاء ، قال الشيخ الصدّيق مبتسما ومتهكّما : هوِّنْ عليك يا أخي ، أنت جاهل في هذا الأمر ، وليس هذا اليوم فقط تجادلني بغير علم ، ولولا أنّكم ستتّهمونني بموت أخيكم الأكبر غدا لتركتُكم وشأنَكم ، لأنّني لا أستطيع أن أرميَ نُقودي في البحر فتضيع كما سيضيع غدا كلُّ ما جمعتموه من الفلوس ، ثم نهض الشيخ الصدّيق بعد حديثه هذا متثاقلا ، ودسّ يده في قميصه فأخرج ما فيه من المال فقدّمه إلى أبي قائلا : ستعلمون غدا في الساعة الثالثة تماما أنّ علوم الحقائق لا تُجْحَدُ ولا تُنْكَرُ .

فنهض أبـي غاضـبا سـاخطا وأخـذ منـه المـال في جفــوة وقسوة ، ونهرنــي قـائلا : مـاذا تنتظـر يـا غافـل ؟ انهـض مـن جلوسك واتبعني ، فنهضتُ مسـرعا واتبعتُـه إلى طريـق دارنـا ساكتا واجما. وفي نهار اليوم التالي أقبلتْ أمِّي من المستشفى شـاكيةً باكيـةً ، فأنبـأتْ أهـلَ الـدّار أنّ المـريضَ قـد مـات ، وسألوها فورا : في أيّ ساعةٍ ؟ قالتْ : في الساعة الثالثة تماما ، فقلتُ لها مستطلعا : وماذا قال أبي عندما شاهد موتَ أخيـه ؟ قالتْ أمّي في هُدوءٍ ووقارٍ : نظر أبوك إلى ساعة الجدار فقـال : سبحان الله ! قد صدق ذلك الشّيطان في هـذه المـرّة ! إنّـا لله وإنا إليه راجعون !

ولما بلغ خبر وفاة المريض إلى الشيخ الصدّيق حزن حُزنا شديدا وقال : ويح قومي لو يعلمون ما علمتُ لصدّقوني قبـل هذا اليوم ، ولقد بحثتُ في صباح أمس عن اسم أخي المريض في لوح الحياة وفي لوح الممات ، فوجدتُ اسمه مرقومـا في لوح الممـات ، ويجحـدني في ذلـك جاحـد . وصـدق الله في قوله عزّ وجلّ : ﴿ **وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا** ﴾ .

(٩)

ثـم كـان المعمِّمـون ، وهـم علمـاء ديـنٍ ودرسٍ ، كـانوا يسلكون في دينهم سبيل الحِسْبَةِ ، يأمرون بالمعروف وينهـون عـن المنكـر ، ويطوفـون بالمـدن والقـرى واعظـين تـارة ومجاهـدين تـارةً أخـرى ، وكـانوا يحملـون في أثنـاء الـوعظ والجهاد عصاً طويلةً ، وكانوا يرونها بندقا يجب أن يتـزوّد بـه كلّ جنديّ ، وكانوا يتخذون العمامة شِعارا ، وكانوا يلفّون بها رءوسهم وأعناقهم وتظهر وجـوههم فيهـا مصـغّرة ، لأنّ هـذه العمائم كبيرة بأدقّ معنى الكلمة . وكان صغارهـم وأطفـالهم لا يُبْعَدُون عن هذه العمائم وهم يحملونها على رءوسهم حالا وترحـالا ، فـترى وجـوهَ هـؤلاء الصـغار عنـدما ظهـرت في العمامة مدوّرة كأنّـها برتقالةٌ ، ثـم كانـت نسـاؤهم تعـوّدْن أنْ يلبسن الملابس السّود في داخل الحجـرة وخارجهـا ويشـغلن ببعض أعمال بسيطة تسهّل لهن سبيل العيش في رغد ورخاء.

وكان يوم الجهاد عند هؤلاء المعمّمين يومًا عظيما ، كانوا يسلكون في ذلك سبلا مختلفة ، وكانوا يتجمّعون في دار خليفتهم في عَدد وعُدد ، ويُلقي الخليفة عليهم خطبة الجهاد ، ويذكر في ثناياها بيوت القرى التي يجب عليهم أن يلمّوا بها إلماما شديدا ، ويخرجوا ما فيها من الأصنام والأوثان ورواسب الجاهليّة الأولى ، ثم يأمرهم الخليفة بعد هذه الخطبة الحارّة بالسير على بركة الله .

هنا تتصاعد الأصواتُ والأناشيد ، وتتعالى العمائم التي على رءوسهم وتتهابط في رقص وغناء ، ويضمّون تلابيب قميصهم بعضها إلى بعض ، ويحنون ظهورهم ويرفعون أدبارهم ويُزَغْرِدُون ، ولقد دُفعوا إلى الهواء بتلك الأناشيد الشعبية التي تمدح المؤمن وتهجو الكافر ، وتذهب بالراقصين والمنشدين كلّ مذهب ، وقد يُخرجهم هذا الغناء والرقص عن طورهم إخراجا ، فترى تلك العصاوات الطويلة ، يتلاقى بعضُها بعضا فوق رءوس النّاس ويضربون ببعضها بعضا ، وينتج هذا الضرب صوتا موسيقيّا عَذْبًا ، ويعينهم على هذا العذب الموسيقي من هو أحسنهم صوتا وأقواهم نديّا ، فيتغنى بصوته ، ويضرب الطبول بخنجر فمه ولسانه ، ويتلاءم

الصوت والغناء في صورة تستغني عن ضرب آلة الموسيقى والطبول ، ثم يتجمّعون في الشارع ، ويبدءون السير على بركة الله .

وكم وصلوا إلى هناك ! وكم قَتلوا وقُتلوا ! وكم يأتي جمع غفير من الشرطة ، ويقبضون عليهم ويدخلونهم في البوصات إلى مركزهم ويُسجنون لثلاثة أيّام أو يزيد .

كلّ هذا هو ما نراه بأعيننا ونسمع بآذاننا في الصّغر ، وكنّا في تلك الأيّام نعتبر أولئك المعمّمين في أنفسنا جنودَ الله ورسله ، وكنّا نحبّ أن ننضمّ إلى صفوفِهم لولا أنّنا أطفال صغار لا نقدر الخوض في غمار المعركة كما يخوضون فيها ليلَ نهار . وكان أبي يغتبطهم ويعظّمهم كلّما يحدّث الناس عن علماء هذا البلد ، وكثيرا ما كان يقول : ما أحسنه لو كان علماء هذه البلدة يسيرون على منهاج هؤلاء المعمّمين في جهادهم ، وكان الإمام عليٌّ يبتسم كلّما سمع ذلك من أبي ويقول أحيانا في شيء من التهكّم : ما أحسنه لو بدأوا جهادَهم من العلم ، لأنّ طريق تعليمهم يحتاج إلى الإصلاح قبل كلّ شيء ، أما أنا فكنتُ صبيّا حينذاك لم أستطع أن أصدّق الإمام عليًّا في هذا التعليق أو أكذّبه ، لكن قد شاء الله

بعد ذلك أن أقطع شوطا لا بأس به في التحصيل والدرس ، وشاء الله في تلك الفترة أن أصاحب شيخا معمّما من أولئك الشيوخ المعمّمين ، ذلك أنّني لا أعرف هذا الشيخ المعمّم إلا بعدما انتقل أبي من دار أبيه إلى الدار التي بناها لنفسه وأبنائه ، وانتقلنا معه إلى تلك الدار الجديدة التي وقعتْ على مقربة من شارع البقر في الحيّ الفلاني .

وكان الشيخ المعمّم يورباويًّا خالصا يسكن في ناحية من نواحي ذلك الحيّ التي وقعتْ فيه دارُنا الجديدة ، وكان رجلا ضخما ، أسمرَ اللّون ، خفيفَ اللحية ، كان على خدَّيْهِ وشمٌ واحدٌ مستطيلٌ ، وكان رأسه منبعِجا غيرَ مدوّر ، وكان يلفّه بعمّة كبيرة تجعل هذا الرأس طويلا في ناحية الوجه ، وكان بطنُه الطافح يجثو على فَخْذَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ كلّما جلس متربّعا في فناء الدار ، وكان يُعلّم تلاميذه كلّ صباح ضروبا من الكتب العلميّة القديمة ، ويسلك معهم فيها مَسلكا عجيبا ، وكان يعتني بمؤلّفات القُدامى من العلماء لأنّهم في نظرهم أهلُ العلم حقّا ، أمّا علماء الحديث فهم أهل القشور . ويعتني خاصة بكتاب الزّرنُوجي ، وهو كتاب يعتبره شيوخ المعمّمين أحسن كتاب وضعه علماؤنا القدامى في التعليم والتربية ،

وكان من الواجب أن يطبّق الشيخ المعمّم على نفسه جميعَ ما فيه من الوصايا والتوجيهات قبل أن يتصدّر للمشيخة والتعليم ، وقبل أن ينتمي إلى جماعتِهم التي يسمونها بـ« زمرة المؤمنين »

ولقد بدأتُ التّعليم في المدارس النظاميّة قبل أن أتصل بشيخنا المعمّم ، وانتهيتُ من المرحلة الثانوية في ذلك الوقت ، وكان يراني ذاهبا وآيبا على طريق الحيّ كلّ يوم ، وكنتُ أراه جالسا على الحصير في دهليزه الذي وقع في رصيف الطريق ، وكان طلاّبه يلتفّون حوله بالكتب المصفرّة بعضها ضخم مجلّد وبعضها خفيف بلا تجليد . فدعاني ذات يوم عندما مررت ببيته ، وطلب منّي أن أريه الكتاب الذي كان معي ، والذي أودّ أن أفرغ من قراءته بعد حين ، فنظر إلى عنوانه وبعض صفحاته ، وجعل يفكّر هنيئة ثمّ قال في جفوةٍ وفتورٍ : ما لكم أيها المطربشون تقرأون ما لا ينفعكم في دنياكم وآخرتكم ، هذا كتاب (عبقريّة عمر) ، وماذا فعل بقرُ عمرَ وجاموسُ عمر ! ؟ أفلا تسمعون ما يقول لكم الزرنوجي في كتابه : « عليكم بالعتيق وإيّاكم ومحدثات الأمور » فسألُته فورا : ما هو العتيق من بين الكتب ؟ قال : العتيق من بين

الكتب يا بنيّ هو كتب المتقدمين مثل نوابغ الكلم للزمخشري، ومقامات الحريري لأبي القاسم ، ورسالة القيرواني وتفسير الصاوي ، وما إلى ذلك من الكتب التي ألّفها المتقدّمون ، ولم يتركوا لغيرهم مجالا للقيل والقال . قلتُ : إذا كان الأمر كما تقولون ، فلماذا تدرسون في الكتب ولم تدرسوا في الألواح ، وأنتم تعلمون أن طِباعة الكتب قد بدأتْ حديثا ، وكانت الألواح قد ظهرتْ قديما . قال : أنت جدليٌّ يا بنيّ ، فإنّ الجدل لا يُغني عنك من العلم شيئا ، نحن نتحدّث عن العلم وأنت تتحدّث عن الطّباعة ، فما وجه المشابهة بينهما ؟ قلتُ له متحمِّسا : يجب أنْ تعلم أن الطّباعة نوع من علم الاختراع ومقامات الحريري نوع من علم الأدب ، ورسالة القيرواني نوع من علم الفقه ، هذا كله علم ، ولا يمكن للإنسان أن يجهله أو يستغنى عنه . قال : إذن ، حدّثني عن مقامات الحريري ، فإني أودّ أن أقف على طول باع ذراعكم في التبحّر . هنا بدأتُ أشرح له العصر العبّاسيّ وما فيه من أحداث وظروف أدّت إلى ظهور أدب الكدية والتسوُّل ، ثم أدّتْ إلى ظهور «المقامات» في نهاية الأمر . ثم بعد هذا كلّه شرعتُ في قراءة المقامة الأولى الصّنعانية عن ظهر قلب ،

وأقف قليلا في كلّ تعبير فنّي لأشرح كثيرا ما فيه من روعة أدبيّة وأساليبَ بلاغيّةٍ ، وأنا في ذلك ، وإذا صاحبي المعمّم يهتف بي : من أين تعلّمت هذا كلّه ؟ قلتُ : في المدرسة النِّظامية ، قال : يجب أن أراك بعد هذا اللّقاء ، ويجب أن أستزيدَ منك علما في بعض الأمور .

هكذا تفارقنا ، ولا نكاد نفترق ساعة أو ساعتين حتى نلتقي من جديد وإذا واحد من تلاميذ الشّيخ المعمّم يدعوني ويتوسّل بي ويلحّ عليّ أن أسوقه في صباح غد إلى المدرسة التي تعلّمتُ فيها من قبلُ.

وفي الغد وجدتُ نفسي أمام مدرستنا القديمة ، وما إن رأيتُ جُدرانها حتى بدأتُ أذكر أمورا كثيرةً عنها ، منها ما يُضحكني حتى اليوم ، ومنها ما يُحزنني حزنا لا يكاد يُهمل ولا يُنسى .

(١٠)

تلك المدرسة هي دارُ العلوم ، وما عهْدي بحديث دارِ العلوم ببعيدٍ ، ولقد كان أبي هو الذي دخل حُجرة شيخ الدار ذات ليلةٍ ! فأخذ يُنادي جميعَ أعضاء أسرته واحدا واحدا ، فلبّى النداء أنا وأمِّي وجدّتي وإخوتي وأرباب الدار من شيوخ وكهول ، فآوى الجميع إلى تلك الحجرة الواسعة الشاهقة ، ولبثنا ننتظر ما وراء هذا النداء من نبإٍ عظيمٍ .

ولقد اشتدّ اضطرابي وامتلأ قلبي وجلا ورعُبا ، لأنّ مثل هذا الاجتماعِ لم يحدث قطّ في حياتي ، ومتى دخلتُ أنا وإخوتي الصّغار في أعضاء برلمان هذه الدار الكبيرة التي لا تزال فيها شيوخ كبار وكهول متوسّطون في العمر ، فماذا حدث لهم في هذه اللّيلة ؟ حتى يُجمع الصغار والكبار على وجه غير مألوف من قبلُ ، هذا كلّه هو ما يضطرب في نفسي ، وأجتهد أنْ أخفيَ هذا الاضطراب على من حولي من النّاس . لكنّ

العرق البارد أخذ يسيل على جبهتي عندما لاحظتُ أنّ هـذا الاجتماع لا يضمّ أولادًا صغارا سواي وإخـوتي ، أمـا أترابنـا من بني أعمامي فهم لا يحضرون ، إذن ، فـالأمر يخـصّ أبـي وبنيه ، كلّ هذا هو ما أفكّر فيه ، وإذا بصوت نحيـف ــ وهـو صوت شيخ الدار ـ يطـرق أذنـي ويـدعو لقـبي ، ويـأمرني أن أتقدّم إلى وسط حلقة الاجتماع وإذا هو يقول : لقـد اجتمعنـا في هــذه الليلــة المباركــة لأجــل مســتقبلك ، وكــان أبــواك يختصمان على أمـرك ، وكـان والـدك يريـد منـك أن تتفـرّغ للتعليم الديني إلى آخر حياتك فتكون غـدا عالمـا كـبيرا مـن علماء الدّين ، أما أمُّك ـ أطال الله عمرها ـ فهي تُريـد بعـدما حصـلتَ في هـذه الأيّـام علـى الشّـهادة الابتدائيـة في التعلـيم المدني أن تستمرّ عليه ، وتستزيد علما حتى تكـون طبيبـا في نهاية الأمر . أمّا نحن أهل الدار فقـد تشـاورنا في هـذا الأمـر ورأينا أنّـه أمر يجب أن يُفوَّض إليك ، لأنّـه يتعلّـق بمصـيرك فوق ما يتعلّق بمصيرهما ، ويتعلّق خاصّة بأمور التعلـيم الـتي يجب أن تكون اختيارية لا إجبارية ، فها نحن في هذه الجلسة المباركة نفوّض إليك أمر هذا الاختيار وخذ ما تريد من ذاتِك

النجدين على مرأى أعيننا ومسمع آذاننـا ، ثـم نوصـيك بعـد ذلك كلّه بالاستزادة فيما تحبّ منهما وترضى .

على هذا النّحو كان شيخ الدّار يُلقي حديثه في ذلـك اليـوم كصاعقةٍ تنزل عليَّ وتُدمدم أعصابي كلّها ، وكنتُ أتأمّـل مـن حولي وأخاطب نفسـي قـائلا : أيـن المصـير في هـذا كلّـه ؟ فقاطعني أبي بحديثه كأنّـه يسمع ما يناجيني قلبــي وقــال : يا ولدي أنا أبوك وأنا أعلـم بمـا يُسـعدك في المسـتقبل ، ألا يسرّك أن تراني ولدا مثلك يطيع أمر أبيه وكان جدّك الأعلـى هو الذي وصّاني قبل موته بما آمرك به الآن . ولقد جـاء إلـيّ في المنام غير مرّة ، وألحَّ عليّ أن أحملك على هذا الطريـق ، ولقد شاورتُ أمَّك على هذا الأمر فأشارتْ إليّ أن آخذ غيرَك من أبنائي ، وقلتُ لها صريحا : إنّني لا أستطيع ذلـك مـا دام أنتَ هو المقصود لا غيرك .ولقد آليتُ على نفسي من قبلُ أن لا خيارَ لجميع أبنائي في التعليم سوى أن يسلكوا هذا الطريق الجادّ ، لكنّ أهل الدار يلومـونني علـى هـذا التشـدّد ، لـذلك تركتُ لغيرك من أبنـائي خيـارا فيمـا يأخـذون ويتركـون مـن التعليم المدني ، أما أنت فليس لك خيـار عنـدي إلا إذا كنـت تريد أن يكون لك والدٌ آخر من الغد ! .

هنا نهض واحد من أعمامي فصاح على وجه أبي وقال : ما هذه الخرافات التي تتمسك بها يا أخي ؟ نحن نتحدّث عن مستقبل الأبناء وأنت تتحدّث عن الرؤيا والأحلام ، ألم تعلم أنّ التعليم المدني الذي تُنكره كلّ الإنكار قد أصبحتْ أموره في هذه الأيّام لازمةً وضروريّةً ، حيث وجب على أبناء هذه الدّار أن يتزوّدوا بأوفر نصيب منها لأجل الغد ، أما التعليم الديني الذي تستميتُ عليه فقد أصبح اليوم في شئون الدولة منسيّا ومهجورا. قال أبي صائحا ! ويحك يا أخي ! أنت تقول إنّ أمور تعليم الدين هي مهجورة ، وأنّ الرؤيا التي رأيتُها بعين رأسي في المنام هي خُرافة ، قل ما شئتَ ولا حرج ، لكن سأريك بعد لحظات ما لا خرافة فيه ، ولم تستطع أن تحوّله إلى الخرافة أبدا . وأنت تعلم أنّ هذا الأمر أمري ، والولد ولدي ، وسيكون القضاء في آخر هذا الأمر قضائي إنْ شاء الله ، أصنع بولدي ما شئتُ كما تصنعون بأولادكم ما تشاءون ، هنا صاح شيخ الدار ـ وهو يتكلف الهيبة والوقار ـ ، وقال في شيء من الغضب : صه ! ولا تكلّمان ، أنتما تخاطبانني بهذا الكلام الذي لا خيرَ فيه ، أنسيتُما أنّكما تتشاجران في حضرتي على أمر بسيط لا يحتاج إلى الجدال ؟

والتفتَ شيخ الدار إلى ركن مظلم نـاء في أقصـى المكـان مـن أركان الحجرة جلستْ فيه أمّي وجدّتي وقـال : مـا رأيـكِ في هذا الأمر يا «غَوغَو» ؟ قالت جدتي : أرجـو أن ينتهـي هـذا اللقاءُ على خير ، قال شيخ الدار ، وأنتِ يا ربّـةَ الـدار ؟ قالـتْ أمّي باسمةً : عفوا يا مولاي وغفرا ، وقد بدا لي الآن أنـّها زلّة لسان أنْ أقترح لزوجي على أمر ابني مع أنـّني لا أقصد بهـذا الاقتراح إلا خيرا ، ولقد حملـني علـى ذلـك مـا لاحظـتُ في المستشفى في هذه الأيّام من سلوك الأطبّـاء وأحـوالهم حيـث كانوا لا يهتمّون بعلاج المرضى من أهل البلد إلا إذا كان مـن أقـاربهم وذويهـم ، أو أقـارب عمّـالهم مـن الممرِّضـين والممرِّضات ، وأيّ مانع إذن يمنعنا عن تربية أبنائنا الناشئين كي يكونوا أطبّاء عن قريب ، فيسدّون هـذا الفـراغ إذا ألمّ بنـا المرض عاجلا أو آجلا ، قال شـيخ الـدار : نعـم يـا آنسـة قـد صدقتِ وأحسنتِ فيما تقولين وتقترحين ، لكن قد بقي شـيءٌ مهمٌّ يجب أن نعتبره في هذا الأمر قبل إصـدار الحكـم ، وهـو هذا الولد ، نعم ، هذا الولد هو صاحب الرأس في هذا الأمر ، ولا يمكن للحلاّق أن يحلق رأسا دون وجود صاحبِه .

هنالك دعاني شيخ الدار بلقبي مرّة أخرى وشجَّعني قائلا : تكلّم يا بُنيّ ، أيّهما تريد من هذين النجدين ؟ أم تريد شيئا آخر لم يتصل بهما عن قريب أو بعيد ؟ قلتُ هامسا أو في صوت كالهمس : نعم ، أشكركم على عنايتكم بمستقبلي وأشكر خاصة أبويّ على هذا الأمر ، وكلٌّ منهما له وجهة نظره في مستقبلي ، وإن كنتُ أعلم أنّ المستقبل لله وحده ، إليه فوّضتُ أمري كلّه وإليه أنيب . فليمض أبي بما أراه الله في أمري وسيراني ـ إن شاء الله ـ مطيعا فيما يريد .

هنالك نهض شيخُ الدار من مجلسه فضمّني إلى صدره وقبّل وجهي ، وأخذ يقول : بارك الله فيك ، أنت الولد البارّ في هذه الدار ، وأنت فخر أبيك ، ثم لم يلبث أن نهض أبي من مجلسه ويقول : ما شاء الله ! ما شاء الله ! أما أمِّي عندما نظرتُ إليها من بعيد فإنّها لم تتحرك من مجلسها ، ولم تقلْ شيئا بل ظلت ساكنةً واجمة كأنّها دُمْيَةٌ ، فراعني هذا المنظر ، واضطربتْ نفسي ، وأخذتِ الدّموع تنحدر من عيني وما إن رأتْ أمّي وجدّتي أنّني أبكي حتى نهضتا من مجلسهما ، وأخذتْ كلّ منهما تسعى إليّ فألقيتُ نفسي على صدر أمّي

بعد التلاق ، وقلتُ لها متلهّفا : والله لا أريد أن أخالف أبي فيما يريد ، ولا أريد أن أراك غاضبةً عليّ ! قالتْ أمّي في لهفةٍ وحنان ، لا مشكلةَ يا بنيّ ! إن لم تكن طبيبَ الأجسام في المستشفى كما أريد أنا فستكون طبيبَ الأرواح في المسجد كما يُريد أبوك .

(١١)

قد تغيّر شأني تغيُّرا هـائلا عنـدما بـدأتُ الـذِّهاب إلى دار العلوم ، وكان مصدر هذا التغيّر يعـود في نظـري إلى أمـرين هامّين ، أولهما : سنّ المراهقة ، وثانيهما : البيئة الجديدة .

كنتُ صبيًّا في الثّانية عشرة مـن عمـري حينمـا دخلـتُ دار العلوم ، وكنتُ ثالثَ أبناء أبي وبناته . وكانت الأنثى هي بِكْـرُ أبي ، وتوفّيت وهي صغيرةٌ ، ثم لا أعلم من أمرها شيئا ، أما ثاني الأولاد فهو أخي الذي هو أكبر منّي سـنّا ، وكنـتُ أخـاه الذي يليه من جهة أمّي ، وأنا ثالثُهم ، أما اليوم فقد أصـبحت ثاني ثلاثة عشر من جهة أزواج أبي الـثلاث بعـد وفـاة طفلتـه الأولى .

أما في تلك الأيام ـ أيّام نشـأتي في دار العلـوم فكنـتُ أنـا وأخي الكبير مصدر هموم أبي وأحزانه ، حيـث أصـبح كلانـا ولدَيْن صغيرين قـد بلغـا سـنّ المراهقـة ، وبلغـا سـنّ الرشـد

والتهيُّؤ الذهني لاستقبال الحياة الصعبة ، كلانا يحتاج في مثل هذه المرحلة إلى الرعاية الكبيرة أو أكثر مما هي من قبل ، وخاصّة في الدراسة والسلوك . ولقد كانت البيئة التي وجد أبي نفسه وأسرتَه فيها بيئةً مقلوبة في نظره ، هي لا ترحّب بالمراقبة الشديدة ، ولا ترحب بالقسوة على الأبناء ولا بالتشدّد في أمور الدين ، هذا كلّه يروّع أبي ويخوّفه ، ويثير في نفسه هموما ثقالا .

وليس من شكٍّ أنّ هذه الأوضاعَ الماجنة هي التي دفعتْ أبي وأعجلتْه إلى بناء مسكن جديد على مقربة من شارع البقر في الحيّ الفلاتي ، كذلك نقل أبي جميع أعضاء أسرته إلى تلك البيئة الجديدة التي تختلف كلّ الاختلاف عن بيئتنا الأولى .

كانت البيئةُ الجديدة بالنسبة إليّ في ذلك الوقت بيئتين : بيئة الحارة التي انتقلنا إليها من جديد وبيئة المدرسة الجديدة التي بدأتُها في عهد قريبٍ جدّا . أما بيئة حارتنا الجديدة فهي بيئة مكتظّة بالغرباء والأجانب الذين ليسوا من أهل البلد ، وهؤلاء كانوا نُشطاء ميّالين إلى العمل في غدوّهم ورواحهم ، وساعين وراء آمالهم ليل نهار ، وكانوا إلى جانب هذا الأمل

لا يحبّون الرّاحة ، ولا يأخذون من غفوتهم إلا قليلا ، وكان بعضهم يختلف إلى عمله في مصنع السكر ، وبعضهم يختلف إلى مصنع السيجار ، وبعضهم يعمل في مصنع الكبريت ، كلٌّ يريد أن يجمع المال ، وكلٌّ يريد أن يتقدّم في دراسته على حساب ذلك المال ، وعلى حساب نفقة أبويه الخاصة ، إن لم يبلغ ما أراد من جمع المال والاستثمار ، على هذا النّحو كان هؤلاء الشباب يغدون ويروحون كلّ يوم ابتغاء القوت وابتغاء أموال تُعينهم على تكملة دراستهم العالية وكانوا لا يستريحون إلا يوم الأحد ، وكان يوم الأحد عندهم يومَ نزهة وتجوال .

كان هؤلاء الشباب يجتمعون صباحا في زاوية بيتهم وفي حلقة غير منتظمة ، ويتحدّثون فيما بينهم عن مشاكلِ هذه البلاد من سياسية واقتصادية واجتماعيّة . ثم يمضون على ذلك ساعة أو أقلّ من ساعة ، ثمّ ينتقلون منه إلى حديث مشاكلهم الخاصة ، وهنا يبدأ كلّ واحد منهم يتحدّث عن شئونه وأعماله وما يعتريه فيها من تعب وإرهاق ، وتدور على ألسنتهم أسماء كثير من رؤسائهم في المصانعً والحُقول ، وما كانوا يُذيقونهم من إهانة وذلّ أثناءَ العمل ، وكأنّهم أبناءُ وطن آخر غيرِ وطن نيجيريٍّ ، وكانوا يتألّمون بتصرّف

الرّؤساء الأجانب الذين أنشأوا المصانع من العرب وغير العرب ، ومن الإنجليز وغير الإنجليز ، وكانوا يلومونهم لوما عنيفا على سوء تصرّفهم في المعاملة ، كأنّهم حيوانات لا يعقلون . ثم ينتهون من ذلك ويبدءون حديث الرياضيّات والأفلام والحفلات ، ويُرسلون عنانهم في الكلام ، ويُبدي كلّ واحدٍ منهم رأيه في أبطال الرياضيّات والأفلام ، وما يتّصل بهم من شُهرة وتفوُّق عالميّ ، ثم بعد هذا كلّه يتفرّقون ، لا إلى حجراتهم ومساكنهم ليناموا ويأخذوا شيئا من الرّاحة ، بل إلى حيث يُصيبون فطورهم بشغف ونهم ، ويبثّون بعد ذلك في الأرض بثّا ، ثم يعودون مساءً بعد أن ملأوا عيونهم بمناظرَ تبعث في نفوسهم فرحا أو ترحا .

وفي المساء عجائب وغرائب لا تُوصف ، هذا يعود ، وقد سئِم الحياةَ ، وفي نفسه حاجةٌ وفي قلبه مُوجدة وحفيظة وفيه مع ذلك رضا بالقضاء وإذعانٌ للقدر ، وذاك يعود ، وقد يئس من أمره ، فيُصيح صيحة عالية ، ويُقهقه بعدها قهقهةً شديدةً ، ثم يخرج من جيبه عُودا من سيجار ، يتخفّف بدخانه المتصاعد عبء الحياة ، وربّما لا يهدأ باله بعود السيجار فيستعين عليه بحفنة من حشيش تملأ رائحته أرجاء الحيّ ،

فترى الـذين يشـمّون تلـك الرائحـة الكريهـة يزفزفـون غيظـا وخنقا ، ويتهامسون فيما بينهم همسا ، دون أن يجهروا بشــيء طائل مما يغضبون عليه .

هنالك ترى شابّا من أولئك الشباب ، يعـود إلى أبـي لـيلا يجالسه ويسامره ، ويُطالعه على بعض أموره للمشورة ، وكان أبي يبتسم له حين حضوره وينشرح الصدر ، ويُريه جانبا مـن حياته ، ليكون له نموذجا يحتذيه أو عبرة تُسليه من أمره .

وفي حديث أبي مع ذلك الشاب عرفتُ أنّ أبي كـان بقّـاراً يرعى الماشية في أيام صباه ، يُرافق أبـاه في هـذا الرعـي إلى كثير من بلاد يوربا ، وكان بلد هذا الشاب منَ البلدان التي مـرّ بها جدّي مع ابنه وماشيته واستوطنه ردحا من الـزمن ، وكـان أهلُ ذلك البلد من الأوائل الذين تثقّفوا بالثقافة الإنجليزية في هذه الدّيار ، وأصبحوا عُظماء ممتازين يُديرون شُئون الدّولـة إلى اليوم . وكان جار جدّي البقّار رجـلا مثقّفـا أراد أن يُعـين جدي على ابنه ، ويذهب به إلى المدرسة الإنجليزية كي يتعلّم فيها ويتثقّف ، لكنّ جدّي البقّار يأبى ويعتذر في هذا الإباء إلى الرجل المثقّف على أنـّه لن يمكث طويـلا فــي ذلـك البلـد ،

ولا يستطيع أن يترك ابنَه وحيدا في الغربة إذا رحل هو إلى مسقط رأسه أو إلى ما شاء الله !

كذلك كان جدّي البقّار قد انتقل بعد حين من ذلك المكان إلى مكان آخر ثمّ إلى ما شاء الله له من أماكنِ الأرض ، وكذلك كان أبي ينتقل معه إلى حيث يأوي إليه ويحرم من تحصيل التعليم المدني في تلك الأيام ـ أيام الصبا .

ثم كان هذا الشاب ، كما كان يستمع إلى حديث أبي في كل وقت وحين ، كذلك كان أبي يستمع إلى حديثه ويستفيد منه ، وكان من حديث الشاب ، ما يفهمه أبي أنّ البيئة الجديدة التي آوى إليها مع أسرته ، لم تكن ملائمة أيضا لتربية النشء . ولم تكن مُناسبةً للكبار من ناحية الأمن والهُدوء ، وكان يحثّ أبي على الرقابة والرعاية ويحثّه كذلك على بعث أبنائه وخاصة أنا إلى تعليم أمور الدين والدّنيا معا .

(١٢)

على هذا الاقتراح الصّارم كان أبي يُعاملني ويُعامل غيري من أبنائه وبناته وكان لا يكترث بتقدّمي في التعليم المدني وإنما يُوجّهني توجيها إلى أعمال أخرى تملأ جميع أوقاتي في الأيّام كلّها ، وقد ساقني إلى حيث آخذ صباحا النصيبَ الأوفر من تعاليم الدين ، ثم حدّد لي وقتا بعد صلاة العصر أعود إلى بيت الإمام عليٍّ للمذاكرة والتقدّم في العلم والتصوّف ، ثم نظم لي برنامجا خاصا أقوم به خلال إجازة الأسبوع.وهو أن أتخلّف إلى الشيخ «كَوْلَوْ» وألمّ عنده ببعض أعمال تجعلني متبحّرا في علوم يسمّونها علوم الأسرار .

كان الشيخ كولو شابًّا وسِيما في أيّام الصّبا لا يطول ولا يقصر ، وكان فخما ضخما ، حسنّ الهيئة وجميلَ المنظر وكان يتطلّع في مظهر لا تقتحمه العين ولا تزدريه وكان طيّب القلب عَذْبَ الحديث رقيق الصوت ، لا يتجافى عن الدّعابة

والفُكاهة كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، وكان يحبّ الأطفال ويُعاشرهم ، ويبعث في نفوسهم نشاطا بدعابته وفكاهته التي لا تنقضي ولا تنقطع .

وكان خيّاطا في أيّام الشباب يملأ دكاكينه بعُمّاله الذين يتعلّمون عنده الحِياكة والخياطة والتطريز ، وكان صغار الحيّ يفدون عليه أيام العيد ويتصايحون وربّما كانوا يبكون إذا رأوا أن ملابسَهم غير جاهزة في أقرب وقت للعيد ، أو أن أقمشتهم غير مطرّزة في وقت موعود ، وكان الخيّاط يجدّ مع عمّاله ويجتهدون على أن يتفرّغوا من ملابس الكبار ثم بعد ذلك يُقبلون على تطرير ملابس الصغار لكن هيهات ! هيهات ! وقد عمِلوا ليل نهار ولم يتفرغوا من الأقمشة إلا قليلا ، تشرّه الخيّاط في جمع ملابس الصّغار والكبار ، وكان بذلك يطمع في مزيد من المال فأرهق نفسه وعمّاله بملابس لا يتفرّغون من خياطتها إلا بعد أيّام وشُهور .

هنالك ترى الصّبيان يلتفّون حوله بكثير ويتصايحون ثمّ إذا بقي على العيد يومان تراهم يبكون على الشّيخ يوسف الخياط بكاء شديدا ، كلُّهم يريد أن يتزيّن بلباس جديد ، وكلّهم يريد

أن يَظهر في مصلّى العيد ظهورا جميلا ، وكان الشيخ يوسف الخياط في مثل هذا الوقت ـ أعني بذلك قُرَيب العيد ـ يظهر لحظات ويختفي ساعاتٍ ، وكان يفرّ من ويلات الأطفال وشتائمهم ، وكان يراني يومئذ قائما عليه من بين هؤلاء الصبية ، ويراني أشدَّهم بكاء وأطولهم لسانا ، وكان إذا خرج من مكانٍ استتر فيه وصادفهم في الطريق فجأةً يخدعهم ويلاطفهم ويحدّثهم قولا ليّنا رقيقا يبعث في نفوسهم أملا على أنه سينتهي من أعمال ملابسهم قبل مساء .

هنالك ترى هؤلاء الصبية ينخدعون بحديثه الليّن الرقيق ، وينصرفون ، أما أنا فلا أنصرف إلا إذا توسَّط في الأمر بأبي الذي كان أحدَ زبائنه الأقدمين حيث كان يحملني على كتفه ويمشي نحو الطريق إلى دارنا ، ويقول لأبي عندما تلاقيا على عتبة الدار : « إن ابنَك هذا ثاقب الفكر متوقّد الذكاء لا ينخدع كغيره بسهولة ويسر ».

على هذا النحو تعرّفتُ إلى الشيخ يوسف الخيّاط في صغري ، وكانتْ داره أقرب إلى دارنا في حيّ « سهل مالك » ، أما بعد ما انتقل أبي إلى مسكنه الجديد ، فقد تحوّل الشيخ يوسف من حرفة الخياطة إلى حرفة المشيخة الروحيّة .

وكان أبوه هو الذي يتعاطى هذا العمل الروحاني من قبل ، وكان شيخا كبيرا من شيوخ « بَوْدَوْفُو » النفاويِّين ، وكان قادريًّا مستجابَ الدّعوة ، وكان له طائر يسمّى « الببغاء » قد علّق قفصه على جدران بيته ، وكان لهذا الطائر مع صبيان الحارة شأنٌ أيّ شأن ، وكان طائرا نمّاما كما نعتقد في أيّام الصغر إذ نراه غير مرّة يقصّ للشيخِ كولو الكبير كلَّ ما حدث في غيابه ، وكان الشيخ كولو يترجم لحديثه ويستعيده للحاضرين بلا زيادة ولا نقص ، كذلك آمن أهل الحيّ أن ببغاء الإمام كولو نمّام كان يتطلع على أسرار النّاس .

أمّا نحن صغار الحيّ فقد حدث مرّةً أننا عبثنا بنافورة دار كولو عند غياب أهل الدار وسال منها الماء سيلا فيّاضا ، فملأتِ الأماكن بفيضة النافورة ، فولّينا فرارا . وجاء الشيخ كولو الكبير ، فقصّ له الببغاءُ كلّ ما حدث ، وذكر أسماءنا واحدا واحدا ، فبعث الشيخ خادمه إلينا فجمعنا الخادم إلى محضره وأخذ الشيخ يسألنا في شيء من البحث والاستفسار.

ـ من الذي كسّر مفتاح النافورة منكم ؟

فأجاب الصبي الذي كسّره منا بقوله :

– نحن لا نعلم شيئا من أمر النافورة ، ولا أمر من كسّرها.

هنالك صاح الطائر «الببغاء» :

صو ! صو ! صو ! صو ! صو !

فقال الشيخ كولو : هو يقول إنّك كاذب ! إنّك كاذب ! أنت أوّل من بدأ تكسيره !

هكذا التفت بعضُنا إلى بعض في شيء من الغرابة ، ووجم كلّ واحد منّا وجوما شديدا ، ففهم الشيخ من سكوتنا على وجم شديد أنّنا لم نبرأ من هذا العبث الآثم ، وأنّنا على ذلك نادمون كذلك هدّدنا الشيخ بالضّرب الشّديد ، إذا حدث ذلك مرّة أخرى ، فانقلبنا من بين يديه صاغرين .

وأنا اليوم أذكر هذه الحادثة وأقيسها بما أقرأ في الموسُوعة العلمية أن الببغاء طائرٌ لا يتكلّم ولا يفهم ما نقوله له ، وإنّ ما تقدّم به ما هو إلا تقليد ومحاكاة لكلمات أو جمل معينة تتكرر أمامه أو ما يُلقَنه الإنسان ليلَ نهار فيحفظه حفظا ويردّده ترديدا ، هذا كما ترى هو رأيٌ علميٌّ صحيحٌ ، أما أنا شخصيًّا فقد رأيتُ أنّ شأن الببغاء الذي أصفه كشأن الهدهد الذي وصفه الحقّ في القرآن ، كلاهما طائرٌ لا ريب في ذلك ، ثم كانت ميزة التخاطب ، فهي تعود عندي إلى من يستطيع

سماع لغة الخاطرة التي هي لغة النّفوس والأرواح ، وهي لغة تخاطب بها الأحياء والأشياء بعضهم بعضا ، بدون التلفّظ بصوت ونغم ، وإذا رأينا أنّ الشيخ كولو الكبير يُخاطب الببغاء فإنّه ينقل أثناء المخاطبة خاطرةَ الببغاء بإحساسه القويِّ وشعوره المرهف ، فصارت هذه الخاطرةُ في نفسه فيضًا وإلهامًا ، يتكلّم عنها ويُصيب ، هذا كما ترى رأي علمي صحيح أيضا ، لا يعلمه إلا الله والرّاسخون في العلم الرّوحاني .

على هذا النّحو من غرائب الأعمال وعجائبها قضى الشيخ كولو الكبير نحبه ، وورثه ابنُه يوسف الخيّاط ، فبدأ يزاول مِهنة الطبّ الروحاني ، وطلب من أبي أن أعينه على هذا العمل ، وأنْ أكتب له آياتٍ وسور على الألواح التّسعة في ثنايا إجازة الأسبوع ، وكان يمحو هذه الآيات والسور بالماء محوا . ويأمر ذوي الحاجات أن يشربوه شربة أو شربتين ، أو يتكرّر هذا الشرب إلى حين ، وكان ذوو الحاجات يعودون إليه ويعطونه أجرا بعد ما قضت حاجاتُهم ، وكان يُعطيني نصيبا من ذلك الأجر ، ويُوصيني بمزيد منه ، إذا زدتُ لوحا أو لوحين على الألواح التسعة المعتادة كلّ أُسبوع .

وكان الشّيخ يوسف كولو يحبّ كُتب الأسرار ، ويضنّ بها وينفق أموالا طائلة على جمع كثيرٍ منها عن طريق علماء « مالي » و« السّودان » و« كاتشنة » و « كنو » و « مدوغوري » ، وكان مُعظم كتب الأسرار مخطوطةً ومكتوبةً بالخطّ المعوج الكوفي ، في دفاترَ غليظةٍ مصفرة ذات حجم صغير أو كبير ، وكانت هذه الدفاترُ قد تكون متفرقة فيجمعها ويشدها بحبل رقيق في صورة كتاب ، وكان يتحدّث عن هذه الأسرار وأهلها في شيءٍ من المبالغة ، ويستعظم خاصة سرّ الدمياطي ، وكان يجرّب تلك الأسرار في مرأى عيني فأرى في هذه التجربة الروحيّة شيئا عجيبا.

ذلك أنّي قصدت داره ذاتَ يوم ، وحملتُ معي تسعة ألواح أمرني أن أكتب فيها آية قرآنية بعدد اثني عشر ألفا وسلكت طريقا ملتوية تقرب إليّ مسافة داره ، وكنتُ أقطع تلك المسافة بالمشي ، وأمرّ بقنطرة خشبية ضيّقة مُدّت على هوّة سحيقة لم تكنْ بعيدة عن داره ، وعلى تلك القنطرة الضيّقة التقيتُ بفتى من أبناء الحيّ ، كان أكبر منّي سنّا ، وأطولَ منّي قامةً . وكان من الواجب أن يتنازل أحدُنا للآخر ، كي يمكن المرور على تلك القنطرة ، لكن ذلك الفتى لا يريد

أن يتنازل لي ، فأبيت أن أتنازل له كذلك . فالتقينا على أعواد القنطرة فبدأتْ تميد بنا ، فتماسكنا ، فسقطتْ منّي تلك الألواح التسعة في الهوّة السحيقة ، فانكسرتْ بعض أعناق الألواح ، وبدأنا الخصام ونهض بعض رجال الحيّ وتدخّلوا في الأمر ، وشايعوني إلى دار الشيخ يوسف كولو ، واعتذروا له على الألواح المنكسرة ، ومضوا في طريقهم ، ولم يكد يمضون في الطريق حتى أظهر الشيخ يوسف غضبه وإنكاره ، وقال في صوت خشن غليظ : « ذلك الفتى لا يوقّر العلماء ، ولا يحترمهم ، فسأريه عاقبة سوء الأخلاق والتربية » .

هنالك جمع الأعشاب والعقاقير وأشياء أخرى لم أكن أعرفها ، وأخذ يقرأ عليها سرّا من أسرار الدمياطي ويردّده ترديدا ، ولم تكد الشمس تغرب في ذلك اليوم حتى أُصيب الفتى بمرض أقعده ، ولزم ذلك القعود أيّاما ، وتوسّل أهل الحيّ ببعض أصدقاء الشيخ إليه وطلبوا منه العفو على أمر الفتى فعفا عنه بعد تعبٍ كبير وإلحاح شديدٍ .

على هذا النّحو تعلّمتُ شيئا غير قليل من علوم العقاقير والطلاسم والأسرار في بيئتي الجديدة ، وأستزيد علما في التصوّف عند الإمام عليٍّ بعد وجبات النهار ، وأضيف إلى ذلك كلِّه ذوقا جديدا في تعلّم اللغة العربية بدار العلومِ .

(١٣)

كان إصلاحُ منهج التّعليم أوّل شيء يروقني في دار العلوم ، وكان هذا الإصلاح قد بدأ من وجود الأساتذة الأكْفَاء ، وتقسيم الفصول ووضع الكتب المقرّرة ، وكان هذا النوع من النّظام جديدا في منهج التّعليم الدّيني في ذلك الوقت . أما المنهج القديم فهو الذي نسير عليه من قبلُ . حيث لا اختيار أستاذٍ لكلّ حصّة أو مادّة ، وإنّما نقرأ جميع المواد والحِصَص على أستاذ واحد شئنا ذلك أم أَبَيْنَا . ثمّ لا هنالك التنقّل من بين الفصول بعد نهاية السنة ، وإنما نكرّر الجلوس في دهليز واحد كلّ عام ، أما بعدما بدأتُ الذّهاب إلى دار العلوم فقد تغيّر النّظام تغيُّرا كبيرا ، حيث بدأتُ أتلقّى مع أترابي في الفصل كلّ مادّة من مواد العلوم على يد أستاذٍ متخصّص لتلك المادة ، وفي وقت مخصوص لا يزيد ولا ينقص عن السّاعة إلا الرّبع . ثم كان الجدّ والاجتهاد ، ثم كان التّنافس

بين الأقران في جميع الفصول . أما في فصلنا فقد لاحظتُ خلال الشهرين أنّني بدأتُ السّبق والظّهور على أقراني بفضل ما تعلّمتُ من قبل عند الإمام عليٍّ في مبادئ اللغة العربية والإسلامية ، ولاحظتُ كذلك فرقا كبيرا بين أسلوب الإمام عليّ وأساليب أساتذة دار العلوم في التدريس وخاصة في النّحو والقراءة والإملاء .

ولقد علمتُم أنّني تحدّثتُ منْ قبلُ عن كيفيّة الإعراب عند الإمام عليّ ، وأرى من الخير أن أحدّثكم عن كيفيّة الإملاء والقراءة عنده الآن .

كان الإمام عليٌّ يُمْلِي علينا بلغتنا المحلّية ويأمرُنا بترجمتها إلى اللغة العربية عند الكتابة ، أمّا في دار العلوم فإنّ الأستاذ يُمْلِي علينا باللغة العربية ونكتبها مباشرة كما هو يُملي ، وكان الإمام عليٌّ يُكلّفنا في الإملاء شيئا آخر أشدّ وأقوى ، وهو وضع الحركات على جميع الحروف . وكان لا يقبل من تلاميذه أن يكتبوا له حرفا بدون شكلٍ ، وكان يعلم أنّ في هذا التشكيل تظهر أخطاؤهم النحوية بلا خفاء وخاصة في أواخر الكلمات .

أما في القراءة فإنّ الإمام عليّا كان ينتظر منك إذا قرأتَ له قطعة من الكتاب أن تنطق بنهاية الكلمة ، وتُظهر ما في الحرف الأخير من حركة أو سكون ، فتُخطئ بعد ذلك أو تصيب على حسب إجادتك في علم النّحو العربي .

هكذا كان أسلوب تدريس اللغة العربية عند الإمام عليٍّ ، وكان أسلوبا صعبا كما ترى ، وعسيرَ المنال . لكن لما بدأتُ السبق في دار العلوم وجدتُ كلّ شيء سهلا وميسورا ، لا شكل في الإملاء ولا ترجمة ، ولا وضع حركة في آخر الكلمة عند النّطق بها في القراءة.

ولقد أذكر فيما أذكر أنّ أوّل يوم طلب منّا الأستاذ في الفصل أن نكتب له سورة من سور القرآن فكتبتُ هذه السورة في كرّاستي البيضاء ، وقدّمتُها إليه مع كراسات أخرى لأترابي ولم يكد يظهر دفتري أمامَ منصّته حتى تفجّر ينبوعا من الضّحك ، وهتف باسمي بعد ما نظر إلى غِلاف الدفتر ، وإذا هو يسألني في شيءٍ منِ العجب والاستغراب

ـ أين تعلّمتَ مبادئ الدين الإسلامي من قبل ؟

قلت : تعلّمتُها عند عمّي الإمام عليّ جبتا.

قال الأستاذ وهو يهزّ رأسه :

ـ ما شاء الله ! ما شاء الله ! أنت أخو ابنه محمد عليّ جبتا ، قلتُ : نعم كذلك .

قال الأستاذ : إنّ أخاك محمدا قد بدأ يتعلّم عندنا منذ عام فلماذا لم يُخبرْك أنّنا لا نكتب الكلمات هنا بقيودها ؟

قلت له منحنيا : عفوا يا أستاذ أنا لا أعلم القيود التي تتحدّث عنها .

قال الأستاذ مبتسما : هي هذه الحركات التي وضعتَها على جميع الحروف ، ألم تعلم أنّها أغلال بالطبع ، وإيّاك بعد هذا أن تقيد الحروف بتلك الأغلال مرّة أخرى .

كذلك انصرف الأستاذ إلى فصل آخر ، وانصرفتُ أنا إلى جلوسي ، ودقّ الجرس لدرس جديد ، فدخل مدرّس اللغة العربية فأخذ يُمْلِي علينا قطعة طويلة تتحدّث عن الدّيك والثعلب ، وأخذتُ أكتب تلك القطعة الطويلة بقيودها دون شعور منّي ودون انتباه إلى تلك الغلطة مرة أخرى ، وبعد لحظاتٍ وقف الأستاذ وانتهى الإملاء ، وأخذ يمرّ بنا صفّا صفّا ، وينظر إلى كُرّاسة كلّ واحد منا ويصحّح ، وجاء دوري

ونظر إلى كراستي وصاح : من أين أنتَ يا مغفّل ؟ وإلى متى تستمرّ بهذه القيود والسلاسل ؟ ألم ينبهك مدرّس التفسير على هذه الأعمال الشنيعة من قبل ؟ ثم لم تزل تصرّ عليها إصرارا . هذا عناد يا مُغفّل ! فهوى الأستاذ على خدّي الأيمن بصفعة تذكّرني هذه الزلات كلما أردت بعد ذلك أن أكتب درسا أو إملاء .

كذلك فتحتْ هذه الصّفعة اللطيفة صفحات جديدة في حياتي ! حيث يليها ضرب من كبار الطلبة على أُمور تافهة أو أخطاء بسيطة ثم ظهر من بعد ذلك إرهاق من عضو مفتّش من أعضاء جبهة العلماء والأئمّة على رسوم التعليم تارة أو على سلوك التلاميذ تارة أخرى ، ذلك كلّما جاء هذا المفتّش إلى المدرسة صباحا أو نهارًا .

(١٤)

ذلك المفتّش هو الشيخ آدم الغَمْبَرِيُّ ، وكان آخرَ الأجداد الذين أشرفوا على دار العلوم وأقاموا شئونها على عاتقهم ردحا من الزمن .

ولقد سعد شباب الجيل بطول أعمار ثلاثة شيوخ من أولئك الشيوخ الأجداد . كان أوّلهم هو الشيخ غزاليّ وثانيهم هو الشيخ آدم الإلوري وثالثهم هو الشيخ آدم الغمبري .

وكان الشيخ غزالي لا يأتي إلي المدرسة إلا في نهايةِ السنة حيث تُعْلَنُ في حضرته نتائجُ الامتحان ، ويتحدث كمدير المدرسة في ذلك اليوم إلى جمع غفير من الآباء والأمّهات ، وكان الشيخ آدم الإلوري لا يأتي إلينا إلا مرّة في كلّ عام ، فيشرف عند حضوره على شئون الطلبة والأساتذة ، وينظر في أنشطتهم العلميّة من نواحي عديدة ، ويُشير إلى جوانبَ تحتاج

إلى الإصلاح والتغيير ، أمّا الشيخ آدم الغمبري فهو الذي يأتي كلّ يوم كمفتّش صباحا أو نهارا .

كذلك كان للتلاميذ شأنٌ أيّ شأن مع الشيخ آدم الغمبري لأنّه هو الذي يأتي إليهم كلّ يوم ويلمّ بأحوال صغارهم وكبارهم إلماما شديدا .

كان مفتشا كما أقول ، وكان مُشرفا في هذا التفتيش ، وكان ينظر إليهم بما بقي في عينيه من نورٍ بصيصٍ ، ويتفقّد أحوالهم وسلوكهم بطريقة لا تستطيع أن تتمالك نفسكً مهما تكن من ضحك غريب متّصل .

كان الشيخ الغمبري إذا جاء راكبا في وقت الاستراحة ، ينزل من درّاجته الهوائيّة ، ويسوق هذه الدرّاجة سوقا بطيئا ، ويمشي مع تلك الدرّاجة كأنّه مشغول البال والفكر ، وكأنّه لا يرى أحدا ممن يمرّون به ذهابا وإيابا ، وقد ينخدع التلميذ بتلك الحالة المذهولة ويمرّ بالشيخ عابرا كأنّه لا يراه أيضا . هنالك ترى الشيخ الغمبري يصيح ويقول في صوت بطيء لا يُكدّر صَفوا ولا يُحرّك ساكنا : تعال ! تعال ! يا بنيّ ، وقد رأيتُك أنا إن كنتَ لا تراني ! أنت مغفّل عديم الأدب والسّلوك .

ثم تراه بعد هذا الشتم الرقيق يمدّ يده إلى إحدى أذني العاصي أو كليهما معا ، فيحرّكهما الشيخ في شدّة والتواء ، ثم يقول له في شيء من العتاب الرقيق : إذا لقيتَ أباك في الطريق ، وكان يقود الدرّاجة ماشيا فعليك أن تهرول إليه مسرعا ، وتأخذ منه الدراجة وتقودها وراءه إلى موقفها ، هذا هو أدب جمّ واحترام كامل ! ثم يعقب الشيخ حديثه هذا بتعبيره المعتاد : « فَاهِمٌ » ! فيقول الصبي العاصي : فاهم ! .

أما إذا جاء الشّيخ الغمبري ماشيا بدون دراجة ، فإنه لا يتسرع في مشيته ، وإنه يتمهّل ويضع لحاف التّبغ في فمه ، ويمرّ بجانبك كأنّه لا يراك ، أمّا أنت إذا مررتَ به في هذا الوقت كأنّك لا تراه ، فهنا تراه يدعوك ويقول لك حازما جازما : يا بنيّ ! من الواجب عليك أن تسلّم على الكبار إذا مررت بهم في الطريق ، ذلك هو أدب جمّ واحترام كامل ! فاهم ! فيقول الصبي : فاهم ! وهكذا .

على هذا النحو كان الشيخ الغمبري يُقوّم تلاميذَ دار العلوم في سلوكهم وأخلاقهم ، ويؤدّي هذا التقويم أحيانا إلى اصطدام عنيف مع صناديد من الطلبة ، فيعنف بهم الشيخ ،

ويشتدّ عليهم ، فيثور هـؤلاء الطلبـة ثـورة عارمـة في وجهـه ، ويُخرجهم ذلك العنف عـن طـورهم إخراجـا ، فيـذهبون إلى موقف دراجة الشيخ ، ويعبثون بها عبثا ، أو يُعطّلونها تعطيلا ، تارةً يكون بطريقة الإحباط ، وتـارةً يكـون بطريقـة التثقيـب ، فتذهب ريح عجلة الدرّاجـة إلى الفضـاء في سـرعة وانـدفاع ، ورحـم الله الشيخ الغمبري قـد كـان صـبورا ، هـو لا يغضـب ولا يبحث عن أولئك المجرمين ، فإنّما يسوق دراجتـه سـوقا إلى مكان الإصلاح ليصلحها ، وقـد لا يـتمكن مـن الإصـلاح أحيانا فيعود إلى بيته ماشيا.

كذلك كانت الأيّام تدور مـع الشـيخ الغمـبري وتلاميـذ دار العلوم ، إلى أنْ جاء ذلك اليوم الذي حـدث بـيني وبـين ذلـك الشيخ المفتّش اصطدامٌ عنيف ، ويا له من اصطدام !

(١٥)

كان ذلك اليوم يومَ نتائج الامتحان ، وكان عند تلاميذ دار العلوم يوما مشهودا ، كان آباؤهم وأمّهاتهم يأتون ليشهدوا النّاجحين والرّاسبين من أبنائهم وبناتهم ، وليسمعوا أسباب النجاح والرسُوب لكلّ واحدٍ منهم ، وكان أبي يحضر تلك الجلسة كلّ عام ، وكان ينتظر في ذلك اليوم أن يكون أوّل من يقوم من مجلسه أو ثانيهم كالعادة كلّ عام ليتسلّم كَشْفَ دَرَجَةِ ابنه ، ويُكبّر الله ثلاث مرات كلٌّ من حضروا ذلك المحفل الكريم عقب نُهُوضِه ، ويفرح هو بتلك التكبيرات والصيحات التي لا تدل على شيء إلا على تفوّق ابنه وفوزه بالدرجة الأولى أو الثانية ، ويبتسم هو ويبتهج بكلّ من يُلقي إليه تحيّة أو تهنئة بعد رفع الجلسة ، ويشعر في داخل نفسه بعزة وكرامة لا يعادلها شيء آخر في ذلك اليوم ، ثم يعود إلى أهله مرفوع الرأس في ابتهاج وسرور .

هذا كلّه هو ما ينتظره أبي في ذلك اليوم ، ولقد تعوّد هـذا الابتهاج والسرور في ثلاثة أعوام مضت . أمّـا في هـذه المـرة فقد خيّب ظنَّه ابنُه ، وقد سقط من الدرجة الأولى إلى الثالثـة ، وذهب كلّ مجد وعزّة وكرامة طالما كان ينتظرها في جلوسه، وظلّ جامدا فيه لم يتحرّك ، وكان لا يسمع اسم ولده في أوّل نـداء ، وكـان داهشـا مـذهلا ، لا يـدري أهـو في الـدنيا أم في الآخرة ، ولقد أفاق من غفوته التي مسته مسا رقيقا على غرار صوت ذلك الشيخ المفتّش الغمبري الذي صاح قائلا : من هو أبو هذا الصبي؟ فنهض أبي متثاقلا ، وقال : أنا أبوه يا سيّدي ! قال الشيخ المفتّش ويحك يا شيخ أنت لا تعلم أنّ ابنـك هـذا قد بدأ يلعب ، وبدأ يذهب إلى نُهيرة « أَلُوكَوْ ». ونُهيرة « أسَا » يتعلّم السّباحة هناك ، وبدأ يتغيّر سلوكه نحو الانحراف ، انظر إليه الآن ، وهو لم يفُـزْ بالدرجـة الأولى أو الثانيـة كمـا تعـوّد ذلك من قبلِ ! انظر إلى مظهره الـذي بـين أيـدينا الآن ، وقـد ركبه جنـونُ الشـباب ، وركـب هـو مطيّـة الجهـل ! كـان زيّـه الرسمي الأزرق قد أصبح قصيرا غيرَ سابل كما نريـد ، وكـان شعر رأسه كالغابة لم يُحلق ولم يُقصر ، وكان سرواله الأصفر قد تنازل إلى أسفل كعبيه ، وهذا بالطبع ليس من سلوك علماء الدين !

على هذا النّحو من التجريح والنقـد كـان الشـيخ الغمـبري يُمطر صاعقة عليّ ، وكـان أبـي يتصبّب عـرقـا فـي مقـامـه لا ينطق حرفا ، فسكت الشيخ الغمبري مـن حـديثـه عنـدمـا لا يتلقّى جوابا من أبي ، ولم يلبث أنْ كان المطر ينزل مدرارا ، فنهض جموع من النّاس وتفرّقوا . أمّا أبي فقد نهض يسـحب رجليه نحو ساحة الدّار بطيئا متثاقلا ، وكان يمسح عرق وجهه بطرف قميصه ، وكان ينظر إلى منْ حوله من النّاس في خجل واستحياء . نعم ، قد رآني واقفا من بعيد ، ورأيتُه مقبلا نحوي ، فسلكتُ طريقا تنتهي إلى وراء جدران المدرسة ، فسلك طريقا آخر ينتهي إلى الشارع الجديـد ، وأخـذ ينهـب الأرض نهبـا ، وكنتُ أقتفي أثره ، وأسعى من ورائه سعيا ، والتفتَ إلى الوراء فرآني ساعيا متبطئا ، فوقف فجْأةً ، ورماني بمظلّةٍ كانت بيـده اليمنى ، ولُذْتُ فرارا إلى طريق أخرى لا نلتقي بعد ذلـك إلا مساء .

كذلك بـدأتِ المـراقـبة الشّديدة من جديد ، لا راحـةَ فيهـا ولا هوادةَ طوال عام ، فجاء الامتحان في نهايـة العـام وعُـدْتُ إلى مقامي المعتاد بين زملائي ، فقال الشيخ الغمبري لأبي في

ذلك اليوم عندما نُودِي اسمي في أوّل نداءٍ : بارك الله فيك أنت أبٌ كريم لابن كريمٍ .

في سبيل الله هذه الأعوام الطِّوال التي قضاها الشيخ الغمبري في دار العلوم ، وقد عايشتُه فيها طالبا ومدرّسا ، كان لا يشغله أمرٌ ولا تمنعه حاجةٌ ، وإنّما يقضي كلّ صباحه في الدار ، ويتقاضى رسومَ التعليم التي وُكِّلَ إليه ، وعلى باب الدار كان يُداعب الموظّفين مداعبة تبعث في نفوسهم نشاطا وحبّ العمل ، وكان في مطعم الدار يختلف إلى النِّساء الطاهيات اللائي يُحاولن كلّ المحاولة في إجادة الطهي ، حتى لا يرى الشيخ ما يسبّب الأمراض الفتّاكة للطلبة ، ثم كان في النّهار يرجع إلى بيته ، ثم يأتي في الغد . على هذا النحو قضى الشيخ الغمبري ثلث حياته يفي ما عاهد الله عليه وعاهد وطنه في أوّل يوم .

ورحم الله الشيخ الغمبري لقد لقي في سبيل الله وفي سبيل المراقبة والتّفتيش جَفَاءً عظيما ، جفاءً من الطلبة ، وجفاءً من أساتذة الدار ، وجفاءً من أعداء العلم والدين ، ولما كثر الجفاء توقّف عن العمل حينا وتوقفتْ دار العلوم عن تدبيرٍ مُحْكَمٍ ونظامٍ دقيقٍ ، وسادتِ الفوضى في نظام المدرسة كلّه .

وشهد الله أنّ الشيخ الغمبري قد أحبّني حبّا جما عندما عُدْتُ إلى دار العلوم مدرّسا ، ولا سيّما عندما علم أنّني أصبحتُ صديقَ حفيده الغمبري ، وكان هذا الصديق هو الذي نعى إليّ ذاتَ يوم في حرم جامعة بايرو بوفاة جدّه العزيز وخررت صعِقًا ! وتلوتُ ما تعوّدنا تلاوته عند فقد عزيز من أعزّاء قومنا وهي : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

(١٦)

ويوم المولد ، كان ذلك اليوم عند أهل البلد يوما عظيما ، وكان علماء البلد هم الذين وضعوا لهم ذلك اليوم عيدا ، وكانوا يرون أن النصارى يحتفلون بمولد المسيح رسميا ، وأي مانع يمنعهم أن يحتفلوا بمولد النبي تنافسا بهم دينيا ، وهذا هو ما جعل أميرهم يشاركهم في ذلك الاحتفال ، دون علم ولا هدى ولا كتاب منير . أما أهل البلد فلا يمر عليهم عام إلا ويحتفلون بذلك المولد النبوى في بلاط الأمير ، ثم لايأتي أوانه إلا ويكون لطلاب دار العلوم فيه دور عظيم .

وقبل ذلك اليوم يأتي مولانا آدم الإلوري إلى دار العلوم صباحا أو نهارا ، ويشرف على المقالات التي أراد هؤلاء الطلبة إلقاءها أثناء المولد ، فمن هنا كان للإلوري خطر عظيم في حياة هؤلاء الطلاب ، فباسمه كانت تقام حفلة المولد ، وباسمه كان أساتذتنا يكتبون المقالات ويوزعونها لطلابهم

النجباء ، ويأمرونهم أن يستظهروها قراءة وحفظا ، وباسمه كذلك يرهبونهم ويهددونهم إذا قصروا في حقهم من الاستظهار . ومن هنا يبدأ هؤلاء الطلاب استظهارهم في خوف ووجل ، وكلهم يحملون معهم تلك الأوراق الضئيلة التي كتبوا فيها مقالات طويلة أو قصيرة ، وكلهم يدخلون الفصول وجيوبهم مليئة بتلك الأوراق ، ويخرجون منها ولهيبة الشيخ في قلوبهم عظيم .

إذن ، لم يكن بد لكل واحد من هؤلاء النجباء من أن يمر بالشيخ آدم عبد الله ليلقى مقالته قبل مساء يوم المولد ، وهذا هو الذي فرض على كل واحد منهم أن يلقى مقالته على نفسه منفردا ، أو على غيره مدربا ، فيحسن هذا الإلقاء ويكرره إذا أصبح أو أمسى.وليلقى نظرة سريعة خاطفة في قلبه إلى ذلك اليوم الذي يفاجئهم الشيخ المشرف بزيارته ، تلك الزيارة التي ينتظرها الطلاب والأساتذة كما ينتظرون يوما عظيما . وما أكثر ما كان المنتخبون من الطلبة يعودون إلى بيوتهم وفى أيديهم أوراق المقالات قد أصابها كثير من وضر الزيت والزبد . وإن هذه الأوراق لآثرت عندهم من هذه الكتب

أو تلك ، لأنها تسبب الفضيحة الكبرى للفاشلين يوم الإشراف ، كما تسبب العز والمجد يوم المولد للفائزين .

هذا كله من المحن والفتن هو ما يمضى كل طالب داري على قنطرته أثناء المولد ، إذا كان من أصحاب المقالات . وهذا كله هو ما أتوقع وقوعه إذا جاء دورى في يوم من أيام المولد . ولقد شاء الله أن يأتي دورى ذات عام من أعوام المولد ، وشاء الله كذلك أن أكون من ضمن القافلة المنتخبة من الطلبة ، ثم شاء الله أن يصادف عام المولد مرور عشرين عاما على تولية العرش للأمير ، إذن لا يكون استعداد الطلاب للمولد النبوى فحسب ، وإنما يكون لحفلة التكريم أيضا ، هكذا بدأت الإجراءات اللازمة ، فأخذ أساتذتنا يوزعون أوراق المقالات وأخذنا نقرأها ونخفظها عن ظهر قلب ، ثم نستعيدها ونلقيها على غيرنا حتى نطمئن على تلك القراءة والحفظ ، ثم نتضرع إلى الله سبحانه وتعالى على أن يفتح علينا ويوفقنا إلى مرضاة الشيخ المشرف العام إذا جاء للإشراف بكرة أو أصيلا .

(١٧)

ما أطول الأيام إذا خلت من الأعمال والآمال ، وما أقصرها إذا توفرت منها ، وقد قصرت في أعيننا الأيام ، رغم أن استعداداتنا استغرقت شهرا كاملا ، وفى نهار يوم أنبأنا الأساتذة أن الشيخ آدم قد نزل في المدينة ، وأن لقاءنا معه يكون غدا بعد العصر ، في قصره بالذات ، ذلك القصر العتيق الذي وقع على رصيف الطريق في حارة من حارات متباعدة من المدينة ، وما إن قرب هذا الوقت المحدد حتى خرج كل واحد منا من بيته ، يولى وجهه ماضيا إلى ذلك القصر العتيق ، كان بعضنا يمشى على قدميه ، وبعضنا يركب الحافلة المأجورة ، أما أنا فقد ركبت دراجتى الهوائية ، وسلكت بها مسرعا في هذه الطريق الضيقة المزدحمة بالمارة ، من تجار وباعة وعمال ، وأمضى على رصيفها حتى بلغت ذلك القصر العتيق بعينه ، فبدأت أسمع صوت رجل أسود قصير يطل من

الطبقة العليا ، ويأمرنا بالصعود إلى فوق ! فبدأ ازدحام الطلبة والأساتذة في السلم الذي سينتهى بهـم الى مجلـس الشـيخ في حضـرتـه وجـلالتـه ! وبينـما كنت أمـضى على السـلم الـذي لا أسـتطيع إحصـاء درجـه مـن الازدحـام ، إذ أوقفنـى ذلـك الرجل الأسود القصير في شيء من العنف ، فصاح قائلا :

- ما الذي جعلك تلبس هذا النوع من القلنسوة ؟

قلت له مطرقا ومنحنيا :

- عفوا يا سيدى ومولاى !

قال الرجل الأسود القصير؛

- هذه قلنسوة من لا خلاق لـه في الآخـرة ، فاطرحهـا في جنب .

قلت له معتذرا ؛

- سمعا وطاعة يا مولاى !

فاقترب هـذا الرجـل الأسـود إلى ، وإذا يـده ترتفـع فجـأة وعلى غير إرادة ، فهوى على قفاى بلطمة شـديدة ، وإذا قلبـى يخفق خفقا خفيفا متصلا ، وليس من شك أنه قد أخافنى بهذا

اللطم وأفزعنى ، لكنى حاولت أن لا أكون مضطرب النفس في أول لقاء مع ذلك الشيخ الإلوري . فأكظمت هذا الغيظ الذي طرأ على نفسى ، وأراد أن يظهر في عينى أثر اللطم الذي فوجئت به ، فدخلت على الشيخ مع الداخلين ، وجلست معهم على سجادة قد بسطت على الأرض ، وكان الشيخ جالسا على الكرسي قد رصت عليها الحشية رصا ، وكان ينظر إلى الكتاب مطرقا ، وحنى ظهره عليه كأنه القوس ، وعيناه تذهب وتجيء في أناة على سطور الكتاب ، وساد الصمت والسكون في حضرته مهابة وإجلالا ، ولم يكن هذا الإطراق يستغرق منه وقتا طويلا ، حتى رفع رأسه في رفق وأناة ، فقال :

- هلم يا هؤلاء ! هلم يا نجباء ! من هو أول مبارز منكم ، يتقدم ويلقى علينا مقالته ؟

هنالك أشار أحد أساتذتنا إليَّ فقال ؛ تقدم يا فلان بن فلان، أنت نقيبهم !

فنظر إليَّ الشيخ نظرة غريبة وطويلة فقال :

- هل هذا هو نقيبهم ، هذا صبى ! قد لا يستطيع أن يتمالك

نفسه من الجبن إذا وجد نفسه في ذلك اليوم أمام الملوك والعظماء من هيبتهم وجلالتهم .

قال الأستاذ وجلا مذعورا ؛

- قد يجتهد هو في إلقائه بعونكم وبركاتكم

قال الشيخ في شيء من الرفق والعتاب :

- أين يوجد العون والبركة لطالب جاء إليَّ عاري الرأس ، هل أنت الذي شجعته على هذا التصرف ؟

فسكت الأستاذ عابسا واجما ، ونظر إليَّ الشيخ كأنه ينتظر منى جوابا ، فخطوت خطوة إلى الأمام فهاجمنى الشيخ قائلا:

- مكانك أى مكانك ! فمن الذي يأمرك الآن بالتقدم إلى الأمام ؟

قلت له هادئا ومنضبطا :

- ما جئت إلى حضرتكم عاري الرأس ، فإن معى قلنسوتى الآن ، وقد وضعتها في جيبى بعد ما نهانى خادمكم عن لبسها ، ولقد قال لى الآن بأنها قلنسوة من لا خلاق له في الآخرة .

فانفجر الشيخ ضاحكا وقال :

- أين تلك القلنسوة إذن ؟

فسرعان ما أدخلت يدى في جيبى فأخرجت منه قلنسوتى وألبستها فورا ، ولما رآنى الشيخ كيف أسرعت ولبست القلنسوة ، ازداد ضحكا وتلطفا وقال في شيء من الخبرة والذكاء :

- ليس عليك بأس أن تلبسها ، فهى قلنسوة أجداد أمرائنا الفلانيين ، ولا عيب في لبسها ، أما سؤالى عنها ومهاجمتى لك عليها فإنها نوع من التجربة والامتحان ، لأننى أشك في شجاعتك ومقدرتك على الصمود ، أمام الجمهور إذا أسند إليك الكلام ، أما الآن فقد جربناك ووجدنا فيك الكفاءة والقدرة على إثبات شخصيتك عن طريق جوابك ، فتقدم الآن واقرأ مقالتك فورا ، فتقدمت وألقيت مقالتى على عجل وفور. وبعدما انتهيت من الإلقاء ، قال الشيخ بصوته الهادئ الرقيق :

فتح الله عليك ! أنت نقيبهم حقا .

على هذا النحو من الخبرة والمهاجمة والذكاء ، كان الشيخ يجرب هؤلاء الطلبة ، أصحاب النثر منهم وأصحاب الشعر ، ويفاجئ كل واحد منهم بما لا يتوقع حدوثه ، يلين في هذه

المفاجآت حينا ، ويقسو عليهم أحيانا ، ثم يقوم ببعض التعديلات في الشعر والنثر ، حتى يستقيم الموضوع الذي لأجله وضع الكلام شعرا ونثرا . وأذكر فيما أذكر أن شعر الدكتور عيسى ألبى هو الذي أجاز لنا الشيخ بإنشاده يوم المولد ، وكان صديقى الغمبرى هو الذي اختاره الشيخ منشدا ، لأنه كان أجمل صوتا وأحسن غناء .

وكان الشيخ نفسه من أرق الناس صوتا وأحسنهم نديا ، فأصبح من اللازم أن يكون الشعر أحب إليه من كل شىء ، وما إن وقف على حظ صاحبنا الغمبرى في الإنشاد والترنم ، حتى قدمه على المنشدين من الطلبة الذين لم يبلغوا مقامه في جمال الصوت والغناء . وأذكر فيما أذكر أن الشيخ الإلوري قد وقف طويلا في بيت من أبيات الدكتور الحلبى ، ذلك عندما يقول :[1]

طوّل الله عمرَ هذا الأمير ليشاهد باليمن عاما فعاما (*)

(*) وقد نشر ديوان الدكتور عيسى ألبى في أخريات هذه الأيام ، وقرأت تلك القصيدة فيه تحت عنوان « ذكرى العشرين على العرش» وكان هذا البيت مخذوفا من القصيدة . ، ولا أدرى سبب الخذف ، أما في ذلك العام « م » فموجود فيها ١٩٧٦م.

سمع الشيخ ترداد هذا البيت على ألسنة الطلاب المنشدين ، مرة ومرة ، فأوقفهم فجأة ، وأخذ يسألهم عن كيفية قراءة «اليمن» ، بضم الياء ، وأخذ المنشدون يقرءون هذه الكلمة على صيغة «اليمنى» بضم الياء والألف المقصورة وأخذ الشيخ يسألهم من جديد .

- أيكم يحدثنى عن الفرق بين اليمن واليمنى ؟

فوجم الطلاب والأساتذة ، فقال الشيخ في لين وهوادة :

- وأنت أيها النقيب ما رأيك فيه ؟

قلت له مجيبا :

- اليمن عبارة عن الخير والبركة ، واليمنى عبارة عن اليد وهى ضد اليسرى .

قال الشيخ باسما وهو يهز رأسه :

- بارك الله فيك ، وقد أصبت ، ويبدو أن النبوغ قد كثر في جيلكم هذا ، ومن الخير أن تواصلوا دروسكم في المركز عندنا بعد تخرجكم في العام المقبل . اذهبوا إلى دياركم ، فلقاؤنا في قصر الأمير غدا إن شاء الله.

كذلك نجحنا نحن المنتخبون ، وبدأنا نفرح ونرقص نحو الباب ، ثم نندفع ونزدحم على درجات السلم التي صعدنا بها إلى الشيخ وإلى الطابق العلوى ، أما الآن ونحن هابطون منها إلى الأرض ، وما إن وصلنا إلى الأرض ، حتى أسمع صوتا ينادينى ، وهو صوت خادم الشيخ ، ذلك الرجل الأسود القصير ، وهو يستوقفنى لكننى لم أقف ، بل أسرعت إلى دراجتى الهوائية مع صديقى الغمبرى ، وركبناها فورا ، وأخذنا نسمع ذلك الخادم يقول بأعلى من صوته :

- وقد مكرت بى عند الشيخ ، ونجحت في المكر حقا ، ولقاؤنا في المركز إن شاء الله!

(١٨)

ثم كـان الانقـلابُ العسـكريُّ ، وكـان هـذا الانقـلاب ممـا أزعجني في أيّامي بدار العلوم وكان لم يقع إلا بعد ما قضيتُ فيها عامـاً كـاملا ، وكـان النّـاس في تلـك الأيّـام لم يتوقّعـوا حُدوثَـه ، لـذلك روّعهـم عنـدما وقـع ، وخـوّفهم تخويفـا لم يحدث مثله قطّ في حياتهم .

ولقد شهد هذا الوطنُ النّيجيري انقلاباتٍ عسكريّةً عديـدةً ، منها ما نجحت نجاحا مؤقّتا ، ومنها ما فشلت فشـلا ذريعـا ، أمّـا الانقـلاب الـذي أزعـج أهـلَ الـبلاد كلّهـم ، وأحـدث في نفوسهم قلقا ورعبا ، هو ذلك الانقلاب الذي قُتِلَ فيه الـرئيس الجنرال « مرتضى محمد » شهيدا

نعم ، ذلك الانقلاب هو الذي أدركني في الصّغر ، وخوّفني تخويفـا وروّعـني ، وتـرك في نفسـي أثـرا لا يُمْحَـى . كـان الجنرال مرتضى محمد ممن شهدوا الانقلاب العسكريّ الأوّل

في نيجيريا ، وشهد بعد ذلك الحرب الأهليّة التي أدّى إليها ذلك الانقلاب العسكري الغاشم ، وشهد كذلك ما يعانيه هذا الوطن العزيز بعد تلك الحرب من أزماتٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ ، فظهر الجنرال فجأة مع غيره بانقلاب عسكري جديد ، فنجحوا ، وبدأوا الإصلاح ، ولم يمض على شئون الإصلاح ستّة أشهر حتى اغْتِيل الجنرال على أيدي الآثمين العسكريين ، فأوقعوا هذه البلاد في براثينَ هالكةٍ أخرى .

أصبحنا في دارنا ذلك اليوم على نياحاتِ النساء اللائي يبكين ويرثين ، وكان الرجال يضطربون خوفا وقلقا ، وكانوا يرون أنّ اغتيال الجنرال فلتة قد تشن حربا أهليّة أخرى ، ولم يلبث حتى ساد البلادَ كلّها صمتٌ وسكونٌ ، لا خروجَ إلى العمل ، ولا حركة ولا نشاط في المصانع والشوارع طوال الأسبوع ، وكانت ولايتنا ـ ولاية كواره ـ من أشدّ الولايات خوفا وقلقا ، لأنّ حاكمها قد قُتل مع المقتولين ، وكان حيّ الفلاتة من أعظم الأحياء قلقا واضطرابا ، لأنّ شابا جنديا من أبنائه قد عُيّن حارسا للرئيس المقتول ، وكان أهله يخافون على أمره ، وكانوا لا يدرون ماذا وقع له ، أكان الحارس

مقتولا مع سيّده الرئيس أم كان ناجيا من القتل ؟ كلّ هذا جعلهم حائرين مبهورين ، ومتسلّلين في أرجاء الحيّ طِوال الأسبوع بعد ذلك الانقلاب الغاشم .

أما أنا فلم يُروّعني في هذا الحدث إلا بكاءُ أخي الصغير ، وهو بَكَّاءٌ لا ينقطع إلا بالنّوم ، وكان يذرف الدُّموع كلّما يرى أهلَ الدار يلتفّون حول الشّاشة وينظرون إلى برامج التعزية ويستمعون إلى أغاني الرّثاء ، وكان أخي الصغير يُثير عواطف النساء ببكائه ، ويجهشْن بالبكاء ، ويقلن شيئا يشبه الثّناء على أخي الذي لا يزال باكيا شاكيا على مقتل الشهيد الجنرال .

وقد يبدأ هذا الأخ الصبي بكاءه أحيانا فيثير هذا البكاء في نفسي غضبا فأقول للأخ الصبي مُعاتبا : مالك تبكي على قتيل لا تعرفه منْ قبلُ ؟ أتريد أنْ تموت معه حزينا مكدودا ؟ أراك تستغلّ ببكائك هذا عواطف أمّهاتنا في الدار ، وهنّ يتحدّثن عن عطفك بكثير ، ويُمطرن على غيرك لوما عنيفا ، لأنّه لا يبكي كما أنت تبكي ! هذا ـ والله ـ غيرُ جميل . ولا أكاد أسكتُ من حديثي حتى أرى أمّي زاجرةً غاضبةً ، فتقول بعد غضبها الشّديد : « دَعْهُ يبكي كما يشاء إنّه هو الوحيد منكم

رأيناه رءوفا رحيما ، أما أنتم فقلوبكم قاسيةٌ كالحجارة أو أشدّ قسوة لا رأفةَ فيها ولا حنانَ» .

كذلك مضتْ سبعُ ليالٍ على الحادثة ، وغَدَوْنا في اليوم الثّامن على نبإ عظيم ، حيث أشاع المذياع أنّ الانقلاب قد فشل ، وأنّ العم الحارس الجنديّ قد نجا ، وأنّ قائدَ ثورة الانقلاب قد قُتِلَ ، وأنّ المشاركين معه في الانقلاب سيُقْتَلُون عن قريب .

على هذا النّحو بدأتِ الحركة في أرجاء البلاد من جديدٍ ، وعدتُ أنا إلى مدرستي ، ووجدتُ نفسي بعد ساعتين ونصف ، من بين جموع من الطلبة الذين يشايعون جُثّة الحاكم المقتول إلى بلده . كذلك قدر الله أنْ أكون واحدا من الذين شهدوا جنازة الحاكم المغتال ، ومن الذين ألقوا عليه تحيّة وداعٍ ، ورحم الله الحاكم ، وجعل الجنّةَ مثواهُ .

(١٩)

الله أكبر ! لقد عدتُ اليوم إلى بلدي بعد رحلةٍ علميّة ودعوية استغرقتْ ربع قرن في حياتي ، فبحثتُ عن رجال عرفتُهم في صغري ، فوجدتُ أنّ كثيرين منهم قد ماتوا ، والذي لم يمتْ منهم قد بدأ يعيش على هامش الحياة ! هذا هو الإمام عليٌّ ، وقد كبُر وشاخ . الله أكبر ! وكان لا يستطيع السّير ، ولا يستطيع النهوض بالتعليم ، وإنما أصبح قُعَدَةً يلزم البيت بكرة وأصيلا .

وهذا هُو أبي ، وقد كان مع تشدُّده وصلابتِه قد انهار حتما وذهب رونقُ شبابه ونضارةُ وجهه ، لكنّه استطاع السّير دون أن يتوكّأ على العصا ، ودون أن يستعين بصبي يقوده في المشي ، وكان في هذه الأيّام يبتسم لكلّ شيء ويسخر من كل شيء .

ولقد استقال أبي من العمل منذ أعوام ، وانفصل من مصنع الكبريت بعد ثورة قادها ضدَّ أصحاب المصنع من العرب ،

وقد أصبح رئيسَ العمّال يومئذٍ ، وطلب منْ أصحاب المصنع بعض حقوق العمّال فأبوا أن يؤدّوا هذه الحقوق ، فهاج أبي وماج ، فتدخّل حاكمُ الولاية في الأمر ، وأرغم أصحاب المصنع على أداء تلك الحقوق ، وبعد ما هدأتْ الثّورة في المصنع دبّروا المكيدة لانفصال أبي من المصنع فنجحوا ، فبدأ التقاعد من العمل ، وظهر الفقرُ والضررُ ، وأخذتْ أزواج أبي تشكو من الكفاف وقليلِ المال ، وانتهى الأمر بالاثنتين منهنّ إلى الطلاق ، وأخذ يعيش مع أمّي منفردَين ، هنالك عاد أبي إلى الفلاحة وتربية الماشية ، وبُورك فيها ، وعشنا نحن أولاده عليها ردحا من الزمن ، أمّا اليوم فقد ذهبتْ سُلطةُ أبي ، وانتهى تشدّده ، وقد كبر أولاده ، لا رعاية ولا رقابة ، وإنما يستشيرهم الآن في كثير من الأمور.

وهذه هي أمّي ، الله أكبر ! قد أصبحتْ تتقلب مع تقلّبات الدّهر على أمور أبنائها وبناتها ، وكانت تفرح بفرحهم ، وتحزن بحزنهم ، وتشكو بكثير كلّما مرتْ نوائب الدهر على واحد منهم ، وكثيرا ما كانت تثني على الله وتشكره على أنّ أولادَها قد بلغوا الكبر في حياتها ، مما خفت ضررها وحلّت

كثيرا من مشاكلها ، وكانت تتضرع إلى الله وتبتهل إليه على طول العمر في صباح ومساء .

وهذه حارتي العزيزة ! وبلدي العزيز ! الله أكبر ! قد طمسِتْ معالمها القديمة وطغت عليها روحُ العصر لا جنودَ في الحارة ولا طائرَ الببغاء ، لا دهاليزَ ولا ألواحَ ، لا حلقةَ السمر ولا قصصَ أبطال الحرب ، لا بيوتَ أهل الفقه كما ألِفْناها قديما ، ولا بيوتَ أهل النّحو ، ثم لا إشراف ، ولا تفتيش في المدارس العربية ، ولا جهادَ المعمّمين في سبيل الله ورسوله ، كلّ ما أنا أنظر إليه في هذه الأيّام هي همومٌ ثقالٌ تحملها كلّ عين ناظر ، وتتطلّع بها إلى بُعد سحيق في المستقبل ، ولعلّه يأتي بقبس من النُّور ، وتجد كلُّ عينٍ من ذلك النّور سبل الهدى !

(٢٠)

أمّا أنا فلم يسعْني هذا اليومُ على أنْ أحدّثكم شيئاً عن رحلتي العلميّة والدّعوية وإنّما ألغيتُ ذلك إلغاء إلى يوم آخر ، إن شاء الله ، والذي لا أستطيع أن أُلْغِيَهُ إلغاء فهو حديث ما تسمعون وأحداث ما ترون في هذه الأيّام . ولا أدري متى أصبح صاحبُكم حديثَ القوم ، ومتى أصبح عظيما من عُظماء قومه يهتمّون بأمره وبسيرة حياته ، فترى فريقا من النّاس يُحبّونه حبّا جما ، وفريقاً آخر يبغضونه ، حتى لا يرون فيه مثقالَ ذرّةٍ من خير ، نعم ! هذا كلّ ما ترونه في هذه الأيّام وما تسمعون عنه .

أمّا صاحبُكم ـ أطال الله عمره ـ فقد يرى لنفسه شيئا آخر غيرَ ما يراه ذانِك الفريقان في أمره ، يرى صاحبُكم أنّه إنسان يُخطئ ويُصيب ، فمن حقّ غيره أنْ يحمل القلم ويقوم بتصويب الأخطاء ويقدر مواطن الإصابة ، لكنّ كلَّ هذا لم

يكن ، فإنّ الذي كان هـو أن يبتلـيَ الله صـاحبَكم بفريـق مـن النّاس إنْ رأوا فيه خيرا دفنوه ، وإنْ رأوا فيه شرّا أشاعوه . ثـم فعلوا أكبر مـن ذلـك حيـث تعرّضـوا لأخلاقـه وسـيرة حياتـه ونواحي نسبه ، وحرّفوه تحريفاً يخـالف الحقيقـة . ولا أدري متى كـان النّقـد الأدبـي الصـحيح ينزلـق بصـاحبه إلى مآخـذ شخصية تضمر أشياءَ أخرى غير النقد الخالص .

والحمد لله وليس هـذا بجديـدٍ في طبيعـة الإنسـان وتـاريخِ البشرية ، فإنّ أشرف الخلق محمـداً بـن عبـد الله القرشـي قـد وصفوه بما ليس فيه ، وقالوا إنّه مجنونٌ ، وقال الحـقّ : ﴿ **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ** ﴾ .

نعم ! أُكرِّر هذا القول من جديدٍ لأولئك الفريق من النّـاس إنّ صاحبَكم ليس بمجنون يَكِيلُكُمْ صاعاً بصـاعٍ ، وإنّمـا هـو عبدُ الله ، كان يرضى بكلّ ما وضعه الله في طريقهِ !

(٢١)

أمّا أنتم أيّها السّادة ! فإنّ صاحبَكم هو هو كما عرفتمُوه ، كان يحب الصّدق في القول ويحبّ الإخلاص في العمل ، لا المجاملة ، ولا المُداراة ، ولا التستُّر وراء الإبرة في كلمة الحقّ ، وقد يكون هذا كلُّه سلبا يجب أن يدفع له الثمن عند خُصومه لذلك كان ما كان من معركةٍ أدبيّة لا هوادةَ فيها.

أمّا اليوم فقد تسألون صاحبَكم عن أشياءَ كثيرةٍ ، فترَوْن أنّه لم يستطع أن يُجيب عليها ، وقد تسألونه عن كيف سار أجداده ووصلوا إلى موطنه الراهن؟، كلُّ ذلك هو ما لا يدري، والذي عَلِم من الأمر أنّ أجدادَه فلانيّون لا مأوى لهم ولا سكن ، وإنّما كانوا رحّالين من مكان إلى مكان ، وقد يُفيدنا التّاريخ أنّ موطنَهم الأصليّ من أعالي فُولْتَا الثّلاثة ، والذي يقع اليوم في غينيا وموريتانيا ومالي وسنغال وغامبيا ،

وما إلى ذلك من البلدان التي مرّوا بها واستوطنوها رَدْحًا من الزمن ثم تنقّلوا منها إلى أن بلغ هذا التنقّل ببعضهم إلى نيجيريا ، وإلى هذا الموطن العزيز الذي وُلِدَ فيه أبوه وأمُّه .

وكلّ ما في الأمر هو أنّه رضِي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيًّا ورسولاً ، وبمدينة « إلورن » بلدًا وموطناً ورضِي بعد هذا كلِّه بما وضع الله في طريقه اليوم وغدًا !

كنو - نيجيريا ، ٢٠٠٨ م

آدم يحيى عبد الرحمن الفلاني